المقدمة

لنبني.. لا بدَّ أن ننهار.. وما كان أبرع في الحكاية عن صافي إلا هي..

أحبت صافي من الحب كلماته وأوجاعه، أنَّاته وآهاته..

لكنها لم تتعلق أبدًا بـ رَجُلٍ؛ فالحب عندما ينهار لا بدَّ وأن نبحث عن الخطأ من جانبنا، فكل منَّا يُحِبُّ بطريقته، ويغفل غالبًا الطريقة التي ينتظرها منه الآخر..

قصَّت عليكم صافي تفاصيلها مع رجال أحبوها، وتركتُ لكم الحكم فيمن هو أولى بوصلها؛ لربما أعجبكم ((لؤي)) الذي سعى بكل ما أوتي من قوة لامتلاكها، ولربما أعجبتكم شخصية ((عائد))؛ ذلك المراهق الناضج، وربما كره البعض ((كامل))؛ ذلك المتردد الحائر، وتركت لكم النهاية كيفما أردتموها؛ جميلة سعيدة، أو كاملة متوقعة، أو حتى حزينة موجعة.

كنت أترقب أيامي معه فقط لأُسعده، فلم يكن لدي ما يسعدني، فقررت أن أقوم بهذا الدور "الدور" إنه ليس لي ولكن..

وجدتُّ نفسي داخل ذلك المسرح العظيم حتى لا أجد غير هذا الدور "دور الضحية" الذي نفضله في بادئ الأمر ثم نثور عليه في آخره، ويرانا المشاهدون في النهاية الخائنين أو الغادرين بعد أن كنا ضحايا!!

للأسف لم ألاحظ يومًا أنني ضحية بالفعل، ضحية لآراء المشاهدين والمتفرجين فكل منهم يطلق الحُكم وهو يُشاهد..

يُشاهدون فقط دون أن يعيشوا أحداث الدور، أو تضعهم الأقدار في مثل هذه المواقف والظروف التي لم ترحمني يومًا!!

تلك الأقدار التي سردت من قديم الزمن كل شيء قبل أن يكون، المواقف والأحداث والظروف التي تُجبرك على الاختيار..

والاختيار الأمثل لك سيكون الأسوء عندهم، وعلى ذلك سارت حياتي، اخترت الأسوء بالإكراه دائمًا لكي يراني الجميع كما يُريدون، أو قُل لأكون عند حُسن ظنهم إن كان هناك ظنٌ حسن يُذكَر هذه الأيام، يُلقبني البعض بالمثالية (المثالية الزائفة) لست مثالية لأني كذلك، لكن ربما لأني أسير حسب توقعاتهم، ولا أُخيِب احتمالاتهم!!

بعدما تفاقمت الأفكار الغارمة في ذهني، صُدم وجداني بصوته؛ لأستيقظ من زحمة أفكار لا حدود لها.

– صافي! بتعملي إيه؟

– مش بعمل حاجة والله، بفكر في حاجة كدة.

– حاجة إيه يا قلبي؟ شاركيني معاكِ.

نظرت له طويلًا ثم سألته:

– إحنا أتجوزنا إزاي؟!!

بغمزة عين وضحكة ساخرة التفَّت يده حول خصري:

– أعرفك؟

لا أنكر أن اشتهاءه لي كان مفرطًا وكان حبه لي آسرًا.. بل قاتلًا!!

– بس يا لؤي بطل قلة أدب، أنا غلطانة إني اتكلمت معاك..

أكمل ضحكه والتفت ليغلق التلفاز:

– طب بذمتك، أقول إيه لواحدة متجوزة بقالها سنة، وجاية تقول لجوزها إحنا اتجوزنا إزاي؟!!

عندما تأملت ملامحه جيدًا وجدت شخصًا آخر، أشعر أني أعرفه جيدًا..

عينان زرقاوتان، وشعرٌ بنيٌّ قاتم، تداعبه الرياح ويتطاير من فرط نعومته، ووجهٌ مستدير مائلٌ للحُمرة، وشفتان متوهِّجتان.

مَن هذا الشبح؟!

بينما أنا في غفلتي مع هذا الشبح، دقَّ في أذني صوت ارتطام كوب زجاجي، رأيت لؤي يحمله محطمًا وقدمه تنزف دمًا!

قلت له بلهفة:

– مالك يا حبيبي؟ إيه اللي حصل؟!

– مافيش فجأة كدة لقيت جسمك بيرتعش وبتتنفسي بصعوبة، دخلت أعملك ليمون، الكوباية وقعت عليَّ.. سيبك مني، إنتِ كان إيه حصلك؟ أول مرة أشوفك كده!!

– أنا كمان أول مرة أشوفني كدة!! بس آسفة ثواني أجيبلك حاجة أطهرهالك..

– لا يا حبيبتي مش عميقة، أنا نازل الشغل بقى.. سلام.

لم يُدرك لؤي ما أنا فيه، وما حدث لي، بل لم أدرك أنا أيضًا ماذا حدث؟ وكيف حدث؟ ولماذا حدث؟

تزوجت لؤي بعد قصة حب دامت لـ خمسة أو ستة أعوام.

كانت قصةً من تأليف لؤي وحده، وضعني بطلتها دون أن أشعر، ببساطة كما يقولون: كان حبًّا من طرف واحد، لكن رآها الجميع من طرفين ذائبين في العشق، وكان عليَّ أن أؤمن بهذا.

لؤي!! ذلك الشاب الوسيم الذي قابلني في سن لم أدرك فيه ما الحب كليًّا؟!! ولكنني رأيتهم يحبون ثم يتزوجون! فأحببت وتزوجت!!

أخبرني بحبه وإعجابه الشديد بي، فاستسلمت لمشاعره وهواه، وأخبرته بما أراد وقلت له: تمنَّ.. عاهدته على الزواج، وأني لن أكون لغيره، وعاهدني هو أيضًا على ذلك، رآنا الجميع قصة حب لن تُروى من فرط مشاعرها، لكني رأيت أنها لن تُروى لسذاجة مشاعري! بل لإبهام مشاعري!!

هل تعلمون أنه عندما تزوجت لؤي كنت في مكانة أُحسَد عليها؟ بل بالفعل حسدنا كثير من الناس..

لأنه لؤي، ذلك الشاب الجميل الذي يعمل مُحاسبًا في بنك الإسكندرية، تزوجنا في مدينة السادس من أكتوبر، وترك كل منا أسرته، كما هو حال هذه الدنيا نترُك ونُترك، أحبني لؤي بطريقةٍ جنونيةٍ، وبعد زواجنا عشقني بطريقة هستيرية، تعودتُّ على لؤي منذ انتقالنا من الفيوم إلى العاشر من رمضان، لم يُكن مثل أي شاب عادي مر في حياتي إن وجُد، فكان مكافئًا لي أو يفوقني في أشياءٍ كثيرة إلا ما أريده! كانت مشاعره عادية بل أقل من العادية، لا لم يكن ذا مشاعر عادية لأنه كان يحبني كثيرًا، ولكنه لم يستطع أن يُعبِّر عن مشاعره يومًا بطريقة تعجبني أو ترضيني، لا أعلم أيضًا هل يحبني؟ أم أنه لديه رغبة لا تمل من امتلاكي، ولكن كل ما أعلمه حقًّا أنه رجل العقل والمنطق، يتعامل وفق العادات والتقاليد، لا يستطيع أن يغير من رتابته وروتينه اليومي، أيضًا هو رجل المادة، لا أعني أنه يحب المال ولكنه يسعى إليه ليكفيني كما يزعم، لا أذكر أني طلبت شيئًا منه يومًا!! دائمًا هو يطلب وأنا أقبل، يدعو وأنا أجيب..

مضى عام على زواجنا، نعم اليوم هو عيد زواجنا الأول 18/2، كان عليَّ أن أحضر الشموع الحمراء وأشعلها، وأُسدل الستائر الحمراء وأرتدي قميصًا أحمر يحبه كثيرًا، وفعلت..

كان يحب الأحمر كثيرًا، لكنه يحبني أكثر، أخبرني بذلك عندما سألته ذات يوم هل تحب اللون الأحمر؟ نظر إليَّ وابتسم ثم قال:

– أنا مش باحب الأحمر إلا عليكِ، وبعدين إنتِ اللون بيليق بيكِ.

– مش فاكر إنتِ كنتِ بتقرئي رواية ولا إيه، كان اسم الغلاف (الأسود يليق بك)، إنتِ بقى الأحمر لا يليق إلا بكِ..

يومها ضحكت وقلت له:

– أنتَ بتعدِّل على الكاتبة أحلام المستغانمي؟ وبعدين "الأسود يليق بك" أعمق..

بعدما جهزت كل شيء باللون الأحمر، ارتديت أيضًا عُقدًا أحمر من حبات اللؤلؤ الصغيرة المتماسكة جيدًا عكسنا تمامًا، أهداه لي ذات يوم من أيام لا أذكر منها الكثير..

كان حُب لؤي المفرط الذي أتقنه دائمًا يجعلني مسلوبة الإرادة، أسيرة تحت طوعه، أبدًا كنت لا أحكِّم قلبي في شيء حتى لا أصدمه ولا أجرحه، تهيأت كعروسِ في ليلة زفافها، وعاد من عمله في الثالثة عصرًا تقريبًا، وجدني مُهيئة.

فقال بلهفة:

– إيه القمر ده؟ أيوه كده ربنا يهديكِ مش تقوليلي أتجوزنا إزاي وأطلقنا إمتى؟

احتضنني وهمس في أذني وهو يقبلني:

– أقولك أتجوزنا أزاي؟

أجبته بصوت رتيب باهت الملامح بلا مشاعر صادقة:

– بحبك.

قلتها كما اعتدت أن أقولها بلا مشاعر!

هو من علمني كيف أنطقها لكنه لم يعلمني كيف أشعر بها أو أعيشها، أذكر دائمًا رسالته واعترافه لي بأنه يحبني، كتب لي في بادئ الأمر: "بحبك من قلبي وأول مرة أقولها لحد".

أشعر دائما أنه بمرور الزمن ينطفئ لهيب المشاعر، كان لؤي يريد

الوصول إليَّ بكل الطرق، كم من مواقف اصطنعها ليعرض حبه عليَّ، وكم من صدفة قصدها ليراني، كان بالفعل يغالي في مشاعره وكنت أحب ذلك، أحب حبه لي ليس إلا، ولكن بعدما اقتربت منه أكثر، شعر بأنه قد ضَمن وجودي، وزادت ثقته أني أصبحت له، فأهمل التعبير عن حبه، ومع ذلك مازلت له ومعه..

جعلتني لك دون أن أدري يا لؤي!!

لا أزعم أني لا أحُبك، ولكني أحببتُك بطريقة مراهقة لم تنجح بعد، ولم تكتمل رؤيتها وما زالت!!

قضينا ليلةً أعجبته كثيرًا، نال فيها مني ما نال حتى أشرقت الشمس، واستيقظت على صوته العالي:

– صافي، إنتِ غبية؟!! مش قلتلك متعرَفيش ماما إني مسافر..

في الليل يكون الرجل مثل القطة الوديعة التي ترمقك بنظرات بائسة لتحضنها، وتنام بين ذراعيك ولا سيما إن سقيتها كوبًّا من اللبن! أما إذا حلَّ الصباح ينقلب الرجل إلى ثعبان خارج للتو من بياته الشتوي بكامل طاقته، يبحث عن فريسته.

– أنا فعلًا قلتلها عشان مش عايزاك تسافر.

أمسكت يده برفق وحنان قائلة:

– لؤي أنا تعبانة، ومحتاجة ليك تفضل جنبي..

– تعبانة إيه وبتاع إيه بس، إنتِ مش فاهمة إيه اللي هييجي من ورا السفرية دي..

زفير طويل ثم أكمل:

– يا صافي إحنا هنتنقل نقلة تانية خالص، هنعيش في مستوى أعلى من ده ألف مرة، هعيشك في اللي بتحلمي بيه..

– لؤي إنتَ ليه بتعمل نفسك فاهمني وليه بتقرر عني؟ أنا مش باحلم أعيش في مستوى أعلى من كده ولا حتى في المستوى ده، أنا باحلم بشخص يحتويني..

– صافي إنتِ تسكتي خالص، وأنا هاحل المشكلة دي مع ماما.

أكمل وهو يرتدي قميصه:

– خلينا في مشكلتك إنتِ، قصدي مشكلتنا..

– مشكلة إيه؟!

– إنتِ لسه مُصرَّة مانروحش لدكتور نشوف فيه ايه؟ صافي أنا عايز أخلف بقى، أنا نفسي أسمع كلمة "بابا".

بابتسامة يائسة قلت:

– أنا هاقولك يا بابا ويا حبيبي، وهاقولك كل اللي إنتَ عايز تسمعه..

– صافي بطلي هيافة وخلينا نتكلم جد شوية، أنا حاستحمل لكن لو فاض بيا!

امتلأت عيني بالدموع وفاضت:

– من غير تهديد يا لؤي، سافر إنتَ بس وسيبها لله.

أثناء نقاشنا وبدون سابق إنذار اقتحم حوارنا، الشبح ذاته، وجدته هذه المرة جالسًا على الكرسي، واضعًا قدماه أمامه منفردة، وسادلًا يداه قُرب الأرض وتاركًا جسده والكرسي يتفاعلان معًا..

لم ألاحظ عليه سوى التعب والإرهاق، والمزيد من البؤس واليأس، رمقني نظرة أدخلت ضلوعي ببعضها، وبينما أنا غارقة في بحر هذا الشبح إذا بلؤي يصيح:

– صافي! مالك يا صافي؟ فوقي فيه إيه يا قلبي؟

– إيه..... ف.....إيـ.....هـ...

– ما فيش خلاص بلاش عيال.

قلت بتعجب:

– ليه يا حبيبي؟ مالك؟!

–!!

– فيه إيه كنت بتزعق كده ليه؟!

أمال رأسي على كتفه ثم قال:

– صافي ممكن نروح لدكتور نفسي؟

– ليه يا حبيبي، إنت تعبان؟!

داعب أنفه وأبعد عيناه قائلًا بنبرة صوت ونظرة لم أفهما بعد:

– آه يا حبيبتي تعبان شوية.

– خلاص يا حبيبي نروح بكره إن شاء الله.

ذهب إلى عمله متأخرًا على غير عادته..

في صباح اليوم فردت الشمس أذرعها، وأخذت أشجار حديقتنا من لونها بريقًا ذهبيًّا لتتزين به، منعشتي رائحة الهواء البارد المفعم بالنسيم الحيوي

الذي أعشقه، طالما أحببت الهواء البارد الذي يظهر في فصل الربيع، عندما تكون الشمس ساطعة هكذا، لأراها من حديقتنا!

بقوة وصوت عالي:

– صافي..... يا صافي!

– إيه يا حبيبي بتزعق ليه؟

– بقالي نص ساعة بنادي عليكي من فوق، إيه اللي نزلك بدري؟

لاحظ خالد شجارنا فأعلن أنه موجود وقال:

– لؤي بيه، أجهز العربية لحضرتك؟

نظر إليه لؤي أي افعل..

– لؤي إنتَ لبست القميص ده ليه؟ أنا مغسلتش.

– معلش ما أخدتش بالي، هاروح أغيَّره وآجي على طول.

ذهب عدة خطوات ثم قال:

– روحي اركبي إنتِ يا روحي على ما آجي..

على زجاج السيارة رُسِمت ملامحه بحرفية تامة! تحسست وجهه بأناملي، أخذت أتحسس عيناه الساحرتين بهدوء، وضعت يدي على شعره ومن ثم إلى خديه، وقبل أن أنطق بشيء..

سمعت صوت لؤي:

– صافي فوقي يا صافي، صافي! بسرعة يا خالد هات منديل..

نظرت إلى الدماء التي تسيل من يدي! وقلت:

– إيه اللي حصل؟

– مافيش حاجة يا حبيبتي، خير بس خدي بالك من نفسِك، إركبي يالا على مهلك..

من بعض الأشياء التي أحُبها في لؤي قيادته للسيارة!! قيادته هادئة جدًّا، مما يجعلك تعيش في جوٍّ هادئ، ومنسجم مع تفاصيل الطريق، يدعوك للتأمل، الأشجار تحف الطريق من الجانبين ومتراصة بشكل هندسي منتظم، أثناء تأملي الطريق أغلقت عيناي وتثاءبت حتى دخلت في نومٍ عميق..

وضعت جسدي على الكرسي المقابل له، جلست أتأمله في صمت، آية في الجمال والروعة، مما جعلني أسأل نفسي: كم كان يبلغ يوسف من الجمال إن كان هذا بشرٌ عادي؟! هل عليَّ الآن أن أقطع أحد أصابعي؟ غاية في الأناقة، يحاول بإيحائه أن يُخضع له أي أنثى، بل كل أنثى.

كان يرتسم على ملامحه سؤال: "أتحبيني؟" كان يود أن يكون ذلك أو كما هيئ لي هذا..

في ذلك الوقت كان عليَّ أن أتمهل في الإجابة، فقد جاوبت على هذا السؤال بالإيجاب يومًا وندمت أيامًا، وبعد تفكير طال أمده قلت بشفتين مرتعشتين: "بل أعشقك"، لا أعلم هل قلت ذلك هروبًا من حب لؤي أم حقيقة!!

ولكن أي حقيقة كانت في الخيال!! دعني أسأل؟

جاوبني على ذلك صوت لؤي:

– صافي فوقي يا حبيبتي، صافي اهدي، إنتِ بترتعشي كده ليه؟! صافي ردي عليا..

– إيه يا لؤي فيه إيه؟!

– مفيش يا حبيبتي وصلنا!

كان يبدو على مبنى الدكتور القِدم، وكان مزدحمًا بأشخاصٍ لا يبدو عليهم المرض، لكن من جاء بي إلى هنا؟! أين لؤي؟! هل تركني وسط هؤلاء المجانين وغادر؟!

لا، ليسوا بمجانين، بل يبدو على أغلبهم العقل، لم أرَ منهم رجلًا طال شعره عبثًا، أو أشعثًا يرتدي ثيابًا ممزقة، بل كانوا أشخاصًا طبيعيي المظهر.

لماذا أنظر إليهم هكذا؟! ربما ينظرون إليَّ أيضًا هكذا، لمحت رجلًا ذا بشرةٍ سمراء، ورأسٍ صلعاء، يبدو أنها لم تنبت شعرًا من قبل، كان غليظ الشفتين، ممتلئ الجسد، طويل القامة، ذا هيئة تؤهله للعمل كـ "بودي جارد"، بصوت خشن قال مشيرًا إليَّ:

– الدكتور مستنيكِ جوه يا فندم..

دارت في رأسي مقولة: "الجواب بيبان من عنوانه"، إلا أنني علمت بعد ذلك أنها خاطئة، ولا بدَّ من تصحيحها إلى "ما يغركش العنوان".

لكن أين لؤي؟! لماذا تتركني الظروف لأسأل عنه؟! فليس هناك مجال أو وقت للحديث..

بيدٍ مرتعشة أزحت الباب للداخل، في حين سمعت صوت الطبيب:

– اتفضلي، ادخلي يا فندم..

ألقيت نظرة على الحجرة بإمعان، كانت بسيطة التفاصيل، واضحة المعالم، يغلب على أثاثها اللون البني الأثري، كانت الحوائط لونها أبيض ناصع، لكنها ترتدي ستائر ثقيلة أعتقد أنها من الصوف الأزرق الفاتح، وعلى

إحدى الحوائط ساعة "بندول"، تقريبًا عمرها منذ "عهد الملك فاروق"، وزُين حائط آخر ببرواز يحتوي صورة طفل ملائكي أشعر بأني قد رأيته من قبل، والحائط الثالث كان فارغًا من أي أكسسوارات، أما الحائط الذي يستند عليه كرسي الطبيب، فمليء برسومات متداخلة، غريبة في فهمها، سهلة وبسيطة في رسمها!

بهدوء استرسلت في اكتشاف المكان، وبنظرات منتظمة راحت عيني في جميع الاتجاهات، حتى اطمأن قلبي فجلست على الكرسي، ووجهت نظري إلى الدكتور، حين سأل:

– عندك كام سنة يا مدام؟

أجبته بانفعال:

– آنسة لو سمحت.

– !!

–آه آسفة أنا متزوجة.

– جميل!

نظرت له متعجبة:

– هو إيه إلي جميل؟!

– إنك افتكرتِ.

– ليه هو فيه حد بينسى هو متزوج ولا لأ؟

وضع قلمه على المكتب ورفع نظارته على رأسه وقال:

– لأ بس في ناس بتنسى هي مدام ولا آنسة!!

– لأ، عمومًا أنا جايه بخصوص جوز.. قصدي لؤي هو تعبان شوية، أعصابه بايظة، بس مش عارفة راح فين؟ ثواني هاتصل بيه..

ضغط زرًا على المكتب وقال:

– لا لا، خلينا نتكلم مع بعض شوية، ييجي هو براحته، إنتِ قولتيلي اسمك إيه؟!

– صافي.

– عندك كام سنة يا صافي؟! وبتشتغلي إيه؟!

نظرت بعيدًا، ووقعت عيناي على صورة الطفل الملائكي مرة أخرى:

– مش فاكره عندي كام سنة، تقريبا 25 سنة، وكان نفسي أشتغل صحفية، بس لؤي مش راضي، أنا بكالوريوس إعلام..

دخل الرجل الأسمر ذاته، طويل القامة فقال له الدكتور آمرًا:

– هاتلي واحد قهوة سادة.

نظر إليَّ وأعاد له النظر قائلًا:

وواحد ليمون، بسرعة يا سيد بلاش كسل.

خرج سيد ببطء شديد وقال الدكتور:

– ها يا صافي قولتيلي هوايتك إيه؟

– القراءة، بحب القراءة جدًّا.

– والكتابة؟

– آه.

بعيدًا عن كل شيء وبداخل هذا الحائط الغريب التفاصيل، رأيته.. نفس العينين الزرقاوتين التي غرقت فيهما كبحر هائج الأمواج.

أنقذني من غرقي صوت الطبيب:

– إنتِ معايا؟!

رأيته يبتسم، أول مرة يبتسم هذه الابتسامة الحانية، رقيق هو في تفاصيله.

بصعوبة أصغيت لصوت الطبيب:

– أيوه معاك، آه.

نظرت له نظرة حائرة، كنظرة طفلة تقف أمام المدرس خائفة، وفي حيرة من الإجابة، لا هي تجيب، ولا هو يرحمها من حيرتها وخوفها..

كان عليَّ أن أتمهل في الدخول، لحين مجيء لؤي..

دخل سيد حاملًا القهوة, يعلو وجهه العبس والتجهم, ونظر إلى الطبيب قائلًا:

مالقيتش ليمون, أجيب مانجا؟

صاح فيه الطبيب:

– مالقيتش ليمون فين؟! إنتَ بتستعبط يا سيِّد؟!

مازال عابسًا, قال:

– الخلاط بايظ.

– يعني الخلاط بايظ مع الليمون وشغال مع المانجا؟! أُخرج يا سيد بدل ما أرفدك, خمس دقايق وألاقي الليمون جاهز.

وضع القهوة على المكتب, ونظر إليَّ متوعدًا وخرج.

سألني الدكتور بلهفة:

– صافي إنتِ بتحبي جوزك؟! قصدي لؤي!

كانت كلمه "قصدي" بمثابة تنبيه ظاهري لكلمة "جوزك"، الكلمة التي أتمهل دائمًا عند نطقها لأعدلها "لؤي".

بدون تجمل قلت:

– عادي اتعودت!!

– تمام, مرِّيتي بقصة حب قبل كدة؟!

– مش عارفة!

– يعني إيه مش عارفة؟ حبيتي قبل كده؟ طب علاقتك كانت إيه مع الشباب؟ طب هاقولك خلينا نبتدي من أول فترة المراهقة, قوليلي من أيام اعدادي،أو ثانوي كدة؟

– أنا مكنش ليا علاقة بالشباب, ماما كانت دايمًا تحذرني منهم, لكن كان ليا زميل من إعدادي كده اسمه "عائد"، كان دايمًا يقول إني عسولة وحنينة, ومن وقتها وإحنا بنستلطف بعض!!

– زميلي, وبنستلطف؟ تمام.. لكن عرف منين إنك حنينة؟!

توترت قليلًا ثم قلت:

– من تعاملي مع البنات, أو من كلامي العادي يعني, أصل علاقتنا كانت سطحية, يووووه معرفش بقى أنا باحكيلك وخلاص.

– خلاص كملي.

أبعدت عيني عنه وأكملت:

– لما كنا في ثانية ثانوي, كنا متعلقين ببعض أوي, أو أنا كنت متعلقة بيه قوي، عشان حصل لينا أحداث كتير وإحنا مع بعض..

امتلأت عيناي بالدموع ثم قلت:

– يعني، كنا بنروح الدروس مع بعض، نتكلم مع بعض، نقعد جنب بعض، كده يعني!

بعدها انهمرت في بكاء يعلوه صوت أنين موجع:

– مفيش، اختفى وتعبت، انتقلنا للعاشر، عائد اختفى فجأة، ولؤي ظهر فجأة، في نفس الوقت لؤي اقتحم توقعاتي بالمستقبل، وقاللي إنه بيحبني وعايز يتجوزني!!

– فاضطريتي تعملي بتحبيه، وتوافقي تتجوزيه؟

– مشيت مع هواه، مكنتش حاسة بيه ولا بغيره، لكن كان المفروض عليا أحس بيه..

دخل سيّد مرة أخرى، ووضع الليمون بجانبي، ونظر إليَّ فتغيرت ملامح العبوس إلى ملامح شفقة، حتى سيِّد أشفق عليَّ!!

قال الدكتور:

– ليه كان المفروض عليكِ؟!

– ماعرفش، بس والله ماعملت حاجة باختياري، أنا سلمت نفسي للدنيا تمشيني زى ما هي عايزة، وعلى كده أتجوزنا!!

– لو الوقت رجع هتبعه..

في وسط كلام لم يتُرجم ولم أستوعبه، كانت كلماته أصوات باهتة، عندما ظهر لي وجهه مرةً أخرى، الشعر البني القاتم يتطاير مع نسمات الهواء، لكن شفتاه تنطق "أُحبك"، أتردد في النطق بالإيجاب لأرد سلبًا "بل أعشقك" في حين أشعر بوخز يصحبه ألم في ذراعي، وفقدت الوعي!!

انتبهت على صوت لؤي:

– حمدًا لله على سلامتك يا قلبي.

كانت ابتسامته صادقة كمشاعره التي يكنُّها لي، أعلم أن الابتسامة الحقيقية تسبب تجاعيد حول العينين، بخلاف الأشخاص الذين يبتسمون بأفواههم فقط..

أدرت وجهي نحوه وقلت:

– إيه اللي حصل؟ أنا فين؟!

– لمحت أبي يقف جوار أمي، لا أعلم كم من الوقت قضيتُ داخل تلك الغيبوبة، إنها حقًّا غيبوبة..

أمسك يدي وربت على كتفي قائلًا:

– مفيش يا حبيبتي إنتِ..

دخل فجأة ليقطع حديث لؤي، بل ليقطع فيما بعد أشياء كثيرة، كان يبتسم ابتسامة دخلت قلبي سريعًا، ابتسامة النظر لأعلى من الجانب مع إطباق الشفاة، والتي يطلقون عليها "ابتسامة الأميرة ديانا" قال في بهجة:

– ألف سلامة عليكِ يا جميل، ماتقلقيش انهيار عصبي بسيط، وهتبقي تمام إن شاء الله!!

شهقت وقلت:

– إنتَ؟!

بابتسامة خاصة، لكنه ما زال مطبقًا شفتيه، ويبدو وكأنه يكتم سرًّا ما، قال:

– أيوه أنا.

أردف جملته بضحكة مصطفة ورحل!

الملامح التي سبق أن حُفرت بداخلي أراها الآن عينًا، ها هو الآن أمامي!

خرج من خيالي إلى واقعي، وقبل أن أخوض في بحر الأفكار، انتبهت إلى أصواتهم المزعجة.

قالت المدعوَّة حماتي:

– بركة إنها فاقت بالسلامة.

أجابتها أمي:

– الحمد لله، أنا كنت هاتجنن عليها، دي عين وصابتها.

أجمل من في حياتي إنها أمي، نعم أمي التي أحببت الحياة من أجلها، أمي التي خلقت بذاتها حياة، وحدها الأم عالم آخر تعيش فيه عيشة منعَّمة، لا تسأمه أو تمله، تتمنى لو أن تقضي جميع أوقاتك في عالم الأم بكل ما فيه!

صوت رجل أحمق لا أعلمه:

– أعصابك منهارة، خليكي هنا شوية على ما تهدي..

أجابه لؤي:

– لا ده أنا هاخدها شرم يومين تغير جو.

تسللت أنظاري خارج الحائط الزجاجي المحيط بجدار الغرفة؛ لأرى شبحي يتجسد عينًا وينظر إليَّ بعمق، مبتسمًا مطبقًا شفتيه.

طلبت من لؤي أن ينادي على.. عليه!، فما هو اسمه يا تُري؟!

بعض أسامي البشر هي في الواقع مجرد اسم، لم ينالوا منه حظًا وفيرًا سوى تعريفهم، ولكن هناك بشر يمتلكون صفات حقيقية من أسمائهم!

طرق الباب بخجل بعدما أشار له لؤي أن يأتي، وقال ناظرًا لي:

– تحت أمرك يا جميل؟!

بدون وعي خرجت مني:

– أحبك كثيرًا.

نظر الجميع في ذهول، بل في دهشة واستنكار!

في الواقع كان مزيجًا من المشاعر المبهمة والمتضادة معًا، أفواه مفتوحة، أعينٌ متسلطة النظر، كثيرٌ من عدم الإدراك، يبدو أن الأمر قد اختلط عليهم! وعليَّ أيضًا!!

سرعان ما عالج الموقف بقوله:

– أحبك الذي أحببتني فيه، أؤمري يا مدام..

قال مدام رافعًا حاجبيه، وبصوتٍ عالٍ بمعنى: احذري أو ربما ليصدمني.

لم أتفوَّه بكلمة.

فقال متلذذًا بصدمتي:

– على فكرة أنا باحسدك على جوزك، ده كان هيموت عليكِ، شكله بيحبك لدرجة إنه ممكن يهدد بالقتل لو حد قرب منك.

لم أفهم ما أراد أن يوصله إليَّ، لكنني أيضًا لم أفهم النظرة البغيضة التي نظرها له لؤي أن يصمت.

كان ينتظر الجميع منَّا أن نصمت سويًّا، لكنني اقتحمت توقعاتهم هذه المرة وأردفت هامسة:

– أنا حاسة بفرحة إني شوفتك، حاسة إحساس حلو قوي.

لكن بالإيماءات والتعبيرات التي ظهرت على وجوههم، كان الصمت خيرًا لي، ومع ذلك انتظرت منه الرد، لكنه خذلني ورحل بابتسامة صادقة.

بعدما رحل شعرت بنظراتهم التي تجبرني على الخجل مما فعلت، لكني لم أخجل!

كان الجميع في ذهولٍ تامٍّ إلا لؤي الذي قال:

– إنتِ بقيتي أحسن يا قلبي؟! عايزة تخرجي من هنا؟!

– آه بقيت كويسة، لكن..

قطع كلامي ذلك الشاب الأحمق الموجود بالغرفة قائلًا:

– لا يا لؤي، لسه مابقتش تمام قوي، لازم تريح أعصابها خالص خليها هنا يومين، مش هيضروا..

أحيانًا يرتكب الحمقى بحمقهم ما نريد!

نظرت له ممنونة لرأيه، الذي حوَّله لؤي إلى قرار.

بنظرات الذهول والشفقة التي أتلقاها من أسرتي وحماتي لحالتي التي يُرثى لها، اندفع كلامي:

– إنتو هتمشوا إمتي؟! أنا بقيت أحسن.

ثم أردفت:

– قلقانة عليكم تروحوا متأخر.

قالت أمي بعدما ظنَّت أني أقول هذا من أجل تطفيش حماتي التي أحبها حب العمى:

– آه فعلًا هانمشي، وبعدين أختك عندها امتحان بكره، خلي بالك منها يا لؤي.

– في عيني يا ماما وفي قلبي كمان.

كان لؤي يتعمد تعذيبي بحبه لي، بدون أن يشعر أو ربما كان يشعر ويرغب في تعذيبي بذلك.

عندما تجعل من لا يحبك أسير لك لمجرد إشعاره بالذنب، ذنب أنك تحبه!!

قبَّلني أبي قُبلة باردة وقال:

– ألف سلامة يا صافي، لو عرفت آجي تاني هاجيلك.

الأب والأم في الحياة شيء أساسي لبناء أبنائهما، لكن أبي وأمي كانا عمودين يستند عليهما حائط يتخلخل دائمًا!!

غادرت حماتي بعدما رأت أنه ليس لها أهمية في هذه الحجرة الطويلة التي تملؤها أجهزة كثيرة لا تستخدم إلا عند الطوارئ، وقتها يكون لا داعي لها على الإطلاق، لأن السر الإلهي سيكون قد أعلن عن غرضه، وكل شيء قد فني!

نظرت إلى أعلى ثم إلى أسفل ثم إلى أعلى سريعًا وقالت:

– خلي بالك من مراتك يا لولو ربنا يرزقكم بالخلف الصالح!!

جلس لؤي بجواري في حيرة وتردد لا أعلم مصدرهما، قطع صمتنا رنين هاتفه ليرد:

– ألو..... أيوه.... أهلا بحضرتك يا فندم... بجد والله؟... حاضر حاضر يا فندم، إن شاء الله أكون عند حسن ظن حضرتك.

أنهى المكالمة في فرحة عارمة سرعان ما تحولت إلى حيرة، فرتب تعبيرات وجهه ثانيةً وقال:

– ده مدير البنك، بيقول إن السفر بكره، خلاص استقر عليَّ، مش.. مش.. هسافر بقى.

أجبته بحزنٍ شديدٍ لخذلانه لي، حتى في حالتي التي يُرثى لها هذه:

– لا، عادي سافر يا لؤي.

لمحت "..... " يمر في الطرقة، تغيرت معالم وجهي وقلت:

– آه سافر إنت يا حبيبي، أنا هابقي أحسن، وبعدين هاخلي ملك تقعد معايا، وهاكلمك على طول، مش تقلق عليَّ خالص.

لا شك أن لؤي تعجَّب مني ومن سرعة تغيُّر موقفي، ومن كل هذه الجمل الإقناعية التي أطرقتها على أذنيه ليوافق على ما تمت الموافقة عليه من قبل، لكنها كانت فرصتي وقد حان الوقت، ومع ذلك لم أكن أعلم بعد، أين المستقر؟!

ولكن كان هناك ما يدفعني إلى مجهول! لا أعلم ما المجهول الذي يدفعني إلى ذلك المجهول؟ أحيانًا نجد شيئًا ما يدفعنا إلى اللاشيء، ولا نعلم ما هو الشيء؟ ولا نصل إلى شيء وربما، كثير من الناس يعتقدون أن

ما يدفعهم هو "الحب" وهكذا اعتقدت..

وضع لؤي قُبلة على جبهتي وقال في سرور:

– موافق يا قلبي، وهاكلم ملك تيجي من الامتحان عليكِ على طول، وهاكلم الدكتور كامل يتابع معاكِ، وحياتي عندك مش تتعصبي خالص وتخليكِ هادية و..

قبل أن أعي اهتمامًا لقوله "وحياتي عندك"، وقبل أن أستمع إلى نصائحه، وقبل كل شيء، ذهبت الأصوات من حولي ولم أعِ ما قاله بعد "كامل" فسألته:

– مين الدكتور كامل؟!

في بادئ الأمر كنت أظن أنه الدكتور الذي قابلته في العيادة، ولكن بفضل من الله خاب ظني، وقال بشيء من العصبية:

– اللي هيتابع حالتك اللي لسه ماشي من هنا من شوية..

ما أجمل أن يخيب ظنك أوقات، بشرود ذهبت إليه كعادتي قلت:

– آه والنبي يا لؤي، خليه ييجي يتابعني.

لم أكن بالخائنة يومًا، ولم يشعر لؤي أني أكرهه أبدًا، كنت له كما أراد وكما تمنى، لم يدرك ما قلته، أو ربما أدرك ولكنه زعم عدم إدراكه، أو ربما لم يلقِ لكلامي بالًا، وقال:

– حاضر يا قلبي.

– طب يالا بقى عشان تلحق تجهز نفسك.

رفض أن يذهب حينها، وأصر أن يقضي اليوم معي، ويذهب في الصباح

ليحضر حقيبة السفر، وأخبرني أن موعد الطائرة سيكون عصر الغد.

أسوأ انتظار هو الانتظار الممل الذي تجعل له عدادًا من نبضات قلبك.

في عصر اليوم التالي كان لؤي في مطار القاهرة، وبعد ساعتين تقريبًا سيكون في الكويت، كانت ملك تجلس بجواري تشكو صعوبة أسئلة الامتحان وبانهيار قالت:

– أنا زهقت، إمتى أخلص بقى يا صافي؟

ملك أختي الصغيرة تصغرني بثلاث سنوات، علاقتي بها كانت قوية قبل ظهور ذلك الشبح، أقصد الدكتور كامل.

ملك في الجامعة الروسية بمدينة بدر، تعشق الرياضيات والفيزياء ولذلك قررت أن تدخل الهندسة، وهي الآن في آخر عام لها لتحصل على البكالوريوس، إن صبرت على ذلك!!

تتميز ملك بسرعة البديهة وفهمها السريع، لديها قدرة رائعة على ربط العلاقات ببعضها، تعتقد أنها ستمارس حريتها فور انتهائها من الدراسة.

في ضحكة ساخرة تدلى منها فكي السُفلي قلت:

– ولما تتخرجي إيه اللي هيحصل جديد؟!

وهمست:

– بتفكريني بنفسي.

– يا صوفيا, أنا نفسي أخلص بقى وأتجوز.. نفسي أعيش بقى.

– إنتِ فاكره الجواز حياة؟! يا بنتي هتعيشي تحت الأنقاض!

بدا على ملامحها التجهم ورفعت حاجبها قائلة:

– إيه التشاؤم ده؟ أومال لو مش متجوزة واحد زي لؤي كان إيه اللي حصل؟!

أغمضت عينيَّ وأخذت شهيقًا لم يزفر بعد وقلت:

– ملك.. إنتِ الوحيدة اللي عارفة إني مش بعشق لؤي زي ما الكل متوقع!

أدارت ملك وجهها بعيدًا ثم التفتت قائلة:

– أيوة.. بس لؤي بيحبك قوي والله, ده بيعاملك كأنك بنته, أنتِ ظلماه معاكي قوي.

– ظلماه؟!! لو في ظلم صحيح يبقي ظلمي لنفسي, بالله تسكتي بقى أنا مش ناقصة..

– أوووووف, أنا تعبت يا ملك تعبت بجد, عملت له كل حاجة عايزها قبل ما يفكر يطلبها, جيت على نفسي كتير, وعشت حياة مش حاسة بيها عشان هو يحس بحياته, كان باهت من غيري وأنا لونت حياته, بادلته المشاعر عشان يفرح, إتجوزته عشان يفرح, بعمل كل حاجة عشان يفرح، أنا بخاف أجرح مشاعره وبس, ده أنا كمان عايشه أسعده, حتى موضوع الخلفة ساكتة عشان عملت تحاليل، ولقيتني كويسه فماحبتش أجرحه, خايفه في يوم ربنا يعاقبني على إهمالي في نفسي.

أخذت أبكي حتى قالت:

– معلش يا صوفيا, بس هو كمان بيحبك ومش مقصر معاكِ في حاجة, هو كمان فضَّلك على الكل واختارك إنتِ, هو كمان حاول يسعدك ويحببك فيه..

إن أراد لؤي تعيين محام ليتكلم ويدافع نيابة عنه, لن يجد أجدر من ملك!!

صحت بصوت مبحوح فيها:

– يووووه! إنتِ مش هتفهميني خالص ولو فهمتي مش هتحسي, يا ملك لؤي مسخرني ليه, عارفه لما تعملي كل حاجة عشان شخص مبتحسيش أصلًا بحاجة وياه؟!!

احتارت ملك من أمري فسألتني في حيرة:

– يعني إيه؟! تتطلقي؟!

– ياريت يا ملك بس مش هينفع.

– ليه مش هينفع؟!

– عشان لؤي ممكن..

قبل أن أكمل حجتي قالت في نفور يعلوه غضب:

– اللّه, ما هو ده حب أهو، وإنتِ خايفة على مشاعره عشان بتحبيه.

قبل أن تزدحم الأفكار في رأسي, ظهر خارج الحائط الزجاجي بابتسامته المعتادة ونظر لي بانتصار, نظرة يقول فيها:

– ها أنا انتصرت، ولكن ماذا حقق؟!!

شهيق وزفير وصياح..

لا أشعر إلا بملك تحتضنني ويدي تزداد تنميلًا, عندما انتبهت جيدًا وجدته واضعًا يده فوق يدي التي اشتاقت لذلك, حتى قبل أن يخرج إلى واقعهم, يدي مازالت تزداد تنميلًا من فرط إحساسها بلمسة يده, جسدي

كله قد مات من قديم الزمن ولكن يدي الآن تنبض بالحياة!!

لم ألمح تفاصيل أخرى عليه غير ما سبق أن رأيته بخيالي.

تنميل مستمر ودقات قلب متصاعدة, الآن أود أن يحيا جسدي بأكمله, ونظرت إليه بشراهة مفرطة، وبشاعة في التعبير عما بداخلي لأقولها "عايزة أحضنك"!!

لكني لم أقل ذلك, بل هو من فعل, رغم دهشة ملك وذعرها, استمر في ذلك, غرقت عيناي بالدموع وانتفض جسدي, ازداد جسدي انتفاضة وثورة على هذا الرجل حتى صرخت بكامل قوتي، إنها صرخة الحياة، نعم لقد ولدت اليوم فقط بين ذراعيه!!

صوته دخل قلبي وهو يقول:

– إهدي.. إهدي يا صافي أنا معاكِ أهو..

قالت ملك وما زالت في استيائها:

– طب ياللا أخرج إنت.. أنا معاها على ما تهدى.

لم أنطق بحرف, كنت في متاهة أحضانه!!

لم يعير لملك اهتمامًا, وهمَّ أن يقول لي شيئًا ولم يقل!

لا شك أننا في وضع قد استفز ملك كثيرًا, نعم في الواقع أنا امرأة متزوجة, كيف لرجل آخر أن يحتضنني؟!!

بداخل هذه الحياة وهذا العالم الجميل, دقَّ جرس الهاتف، وردت ملك وقالت في قلق واضح:

– هنا أهيه.. خدي يا صافي لؤي..

انسحب كامل مني وخرج في صمت.

بصوت يملؤه الحزن والبرود معًا قال:

– أيوه يا حبيبتي أنا وصلت إنتِ كويسة؟

– آه..

– خدي بالك من نفسك, سلام يا قلبي.

– سلام!

أغلق الهاتف وقد وجدت نفسي في مأزق الوجع.

أخذت أبحث عن كامل أظن أنه قد أخذ نصيبًا كاملًا من اسمه؛ نعم إنه كامل!!

نظرت إليَّ ملك في استنكار وقالت:

– ممكن أعرف إيه اللي حصل ده؟!

سألت ملك سؤالي المعتاد:

– إيه اللي حصل ده؟!

لم أكن أعلم بالفعل ما الذي قد حدث؟!

أجبت بعد تنهيدة طويلة:

– أنا فرحانة قوي يا ملك! حاسة إني باحلم!

– لا إنتِ مابتحلميش ولازم تحطي ده في الاعتبار، وتاخدي بالك إن كل اللي بيحصل ده حقيقة، في فرق كبير بين إننا نحلم ونخرف في الحلم ونصحى نلاقي الواقع زي ما هو، وكل حاجة في مكانها الطبيعي، وفرق بين

إنك تخرَّفي في الحقيقة وكل حاجة تتلخبط فعلًا!!

أثناء شرودي وذهولها، دخل ثانيةً وقال:

– نسيت أقيس لك الضغط.

وهو يضخ الهواء في الجهاز قلت:

– أنا عايزة أخرج شوية، أي مكان غير المستشفي.

– ضغطك عالي قوي 180/110 كتير، حاضر هاخرجك.

– يلا البسي على ما أرجعلك.

كانت ملك مذهولة مما يحدث فقالت بانفعال:

– لأ طبعًا مش هتخرجي، إلا لما لؤي يرجع بالسلامة.

قال كامل في خجل لذيذ:

– هي مش هتخرج نهائي.. لكن هاننزل جنينة المستشفي شوية.

وما لبث برهة أردف:

– وبعدين أنا الدكتور وأنا اللي أقرر تخرج ولا لأ.

كم أعشق الرجل الحازم في تعبيراته وقراراته، رجل يقول بالفعل وإطلاقًا وأبدًا، وبالأخص إن كان كامل، قبل أن تومئ ملك رفضًا.

قلت وقد حانت فرصتي في الجزم أيضًا:

–هانزل أتمشى خمس دقايق وأرجع على طول، خليكِ هنا!!

ارتديت عباءة ووضعت حجابي، أخذني كامل خارج الغرفة ومشينا سويًّا، أثناء سيرنا في طرقة المستشفى، قابلنا الدكتور سليم الذي حولني إلى هنا،

بل الذي أخرجني من رحم المأساة لأخرج على يد كامل، كان طويل القامة، حسن الهندام، تبدو عليه الأناقة، في ملامحه شيء من الفطنة والنشاط، تقريبًا في الخامسة والخمسين، ألقى علينا السلام، وذهب يحمل بداخله الكثير من الاحتمالات والتوقعات، وعندما وصلنا إلى حديقة المستشفى هُيِّء لي أني داخل الجنة!

في صمت لذيذ جلسنا، نظر إليَّ وقد احمرت وجنتيه وقال:

– ها بقى يا جميل، إحنا لوحدنا أهو، عايزة تقولي إيه؟!

– عايزة أقول.. بحبك.

– !!

– مستغرب؟ إنتَ كنت في خيالي، مش عارفة ايه اللي بيدفعني لكل اللي باعمله، لكن..

نظر أرضًا، ثم قال بصوت مبحوح:

– إنتِ بتتعالجي من أي مرض نفسي؟! إنتِ وقعتي على دماغك قبل كدة؟ إنتِ فقدتي الذاكرة قبل كدة؟!

قبل أن أرد على سؤاله الأحمق، تمايلت عليه ووضعت يدي حول عنقه، كان في تجاوب تام، اقترب مني أكثر فأكثر، تعالت أنفاسه وسابقتها دقات قلبي وضع قُبلة على رقبتي وقال:

– رجعتيلي تاني! إنتِ طلعتي لي منين تاني؟!

بداخل هذا العالم، ووسط كل هذه الأشواق، اندلعت حرارة، حرارة الهاتف الذي وضعه بجانبي على المقعد، ليظهر على شاشته "My Love"، أخذه سريعًا بدون وعي ليرتب القدر الأحداث في أن أرى هذه

الجملة "My Love"، جملة جعلتني أحترق غيرة بداخلي، لا أعلم هل هي غيرة نسائية أم شبيهة بذلك؟

كبركان كان في باطن الأرض ينفجر من فرط حرارته، قلت في سخرية تملؤها جدية:

– مين ماي لفك دي يا كوكي؟!

قبل أن يجيبني، أجاب صاحبة الدلال:

– أيوه يا حبيبتي، إنتِ..

لم أعي لما قاله بعد "حبيبتي"!! أخذتني الغيرة إلى عالم الموتى حيث يصيحون لا نسمعهم، يتألمون ولا نشعر بهم، ينتفضون شوقًا إلينا ولا ندري، ينتظرون أن نأتي ونأمل ألا نذهب!

أفكار كثيرة تراكمت في ذهني، أيكون هذا رجلًا خياليًّا حقًّا؟! هل أنا في الخيال؟! هل كل ذلك وَهْم أم أنا مريضة حقًّا؟! هل هذا ما جعل لؤي يصطحبني إلى هنا؟!

لقد اختلط عليَّ الأمر من فرط المشاعر المتضاربة! كثير من التساؤلات التي ألقت بي إلى بحر اللاوعي برهة؛ لأستيقظ على صوته:

– خطيبتي، زمانها جاية دلوقتي، ياللا علشان تطلعي إنتِ.

يبدو أنني في الواقع بالفعل، فلا يصدمنا ويسير عكس هوانا غير الواقع المرير!

في نفور بالغ تعلوه حدة قلت:

– خطيبتك؟!! إزاي يعني؟!!

تغيرت ملامحه بعض الشيء وهمَّ بالنطق، لكن ما فعلته كبح جماحه، خلعت حجابي وفردت شعري بهمجية لأجذب انتباهه إليَّ، أو لربما ليعتقد أني مريضة حقًّا، ويقرر علاجي على يده!

في ذهول قال:

– إنتِ مجنونة يا صافي؟ إيه اللي بتعمليه ده؟!

وقعت عباءتي من على أكتافي فأخذ يلملمها وبنظرة المشتهي العاقل قال:

– ينفع كده؟!!

– صافي أنا دكتور ولازم أفسر أفعالك على إنك مريضة، أي حد هيشوفك كده هيقول مريضة..

قبل أن يكمل نادى على رجلين من العمال:

– راشد، صالح.

خاطبهما آمرًا:

– خدوا الحالة دي غرفة 203 وأنا هوصي دكتور عاطف عليها على ما أرجع!!

في هياج يشبه هياج المرضى صحت:

– إنت غبي.. أنا مش مجنونة.. استنى يا كامل.. كامل أبوس إيدك استنى.. أنا مش مريضة يا كامل.. كامل..

كثيرٌ من الإذلال ومزيدٌ من الحب، ومزيجٌ من الخيال والإبهام يجعل منك مجنونًا فعلًا!!

عندما رأتني ملك مقيدة الأيدي ويحملني العاملان صاحت في ذهول:

– في إيه؟

لم يكُن يبدو عليَّ إلا دمعي الذي رأت فيه جميع الإجابات، كلمات يصعب على اللغة ترجمتها، ويصعب على القلم أن يُخطها.

في بُكاء عارم سألتني:

– في إيه يا حبيبتي؟!

قبل أن أنطق بشيء، دق جرس الهاتف.

ردت في انهمار بكائها:

– ألو..

لم تُكمل ولكنها وضعت الهاتف على أذني، ليتسلل صوته ليقول:

– أيوه يا ملك إديني صافي..

وسط الدموع والشجن خرجت مني بعض الحروف غير المُرتبة:

– أنا.. صافي.

قال في شوق يملأ صوته:

– إزيك يا قلبي وحشتيني قوي، معلشي هتأخر عليكِ يومين كمان، ظروف الشغل.

وأردف:

– إنتِ كويسة؟!

ببرود ينبع من بركان:

– آه.. خد بالك من نفسك.

وضعت سماعة الهاتف في هدوء تام ثم نهضت إلى السرير، حاولت النوم! دخل الدكتورعاطف بكامل وسامته، يرتدي بدلة أنيقة، ويبتسم ابتسامة جادة لا تشي بسعادة أو بحزن، لا تشي بشيء!!

قال وما زال يبتسم بجدية:

– ها يا مدام عاملة إيه دلوقتي؟!

– الحمد لله، هو كان مالي؟!

– أعصابك منهارة حبتين، بس شكلك بقيتي أهدى، دكتور كامل موصيني عليكِ جدًّا، ومن أول ما دخلتي هنا وهو قرَّر يتابعك بنفسه!! عموما هو مش هيتأخر، لو احتاجتِ حاجة أنا جنبك هنا.

بعد خروجه، أخبرتني ملك أنها ستذهب إلى صديقتها لتحضر منها ملزمة تحتاجها في امتحان الغد، وأخبرتني أن الغد هو آخر أيام الامتحانات.

بعدما ذهبت، خرجت إلى الطرقة متجهة إلى مكتب الدكتور كامل علَّني أجده، في الطرقة قابلت الدكتور سليم.. أظنه رئيس القسم لأنه يمر من هنا دائمًا، بادلته ابتسامة زائفة، لكنه لاحظ ذلك، فأوقفني:

– خارجة لوحدك كده على فين؟!

– عادي! بتمشى، اتخنقت من الأوضة!

في تركيز منه للغة جسدي، وتحليل نفسي لصدق كلامي، اكتشف أني أتحايل عليه، فتحايل هو أيضًا وقال:

– متيجى ندردش في المكتب عندى شوية.

كان عليّ أن أوافق حتى لا يُجزم أني أتحايل عليه، أو يعيدني إلى غرفتي مرة أخرى مقيدة اليدين!

دخلت مكتبه الذي يشبه عيادته مع حداثة في الديكور، لكن عمومًا نفس الجو العام للعيادة النفسية، جلست في توتر جعلني أمسك ذراعي بشدة لدرجة أن أصابعي ومفاصلها تحولت إلى اللون الأبيض الشاحب، قلت:

– مكتب حضرتك جميل.

قال بابتسامة تلاشت سريعًا:

– جميل بس ولا جميل جدًّا؟

هل يعلم الأطباء النفسيون أن مرضاهم غير راضين عنهم؟! وغير راضين عن كل ما يخصهم؟!

هل يعلمون أيضًا أن المرضى يكرهون مكان وموعد لقائهم بهم؟!

ضغط زره وما لبث أن دخل رجل أصلع يشبه سيِّد ولكنه أضعف منه جسدًا.

طلب منه أن يحضر قهوة وسألني:

– تشربي حاجة؟

فرفضت وكان يبدو عليَّ أن شهيتي قد رحلت ولن تعود الآن.

وجَّه نظره إليَّ ثانيةً ثم قال:

– قولتيلي بعد ما اتجوزتِ لؤي الحياة مشيت معاكِ إزاي؟!

عندما باغتني بسؤاله قلت مستسلمة:

– مشيت آلية مش فاكرة تفاصيل كتير، لكن فاكرة إن في مشاكل كتير

حصلت في الجواز وبرده قبل الجواز.

– إيه اللي قبل الجواز؟

– مش فاكرة..

– وإيه اللي بعد الجواز؟

– الخلفة، في الأول كنت خايفة يكون العيب مني، وماعرفش أسعد لؤي وأجيب الطفل اللي يفرحه، ولما عرفت إني كويسة، مش رضيت أقوله عشان ماجرحوش.

– مش قادر أفهمك، إنتِ بتحبي لؤي؟

تابعت بدون اهتمام إلى سؤال لم أعرف إجابته بعد:

– وبعد خمس أو ست شهور، فكرت أعمل حاجة جديدة غير الروتين، بدأت أقرأ، أفتكر إني زمان كنت بعشق القراءة، اشتريت كتب كتير من ضمنها كتاب اسمه "انتفاضة الوجدان" مش فاكرة مين كان كاتبه لكن.. أنا ضايع مني أحداث كتير مش قادرة أفتكرها!!

– حاولي، كملي..

– الكتاب غير تفكيري وغير مجرى حياتي، يمكن يكون للأسوأ لكن حصل تغيير وحسيت إني باتفرج على نفسي من بره، شفت سنين عمري ضاعت قدامي..

دخل العامل حاملًا القهوة، ووضعها على المكتب ورحل.

نظر إليَّ الدكتور سليم أن أكمل، فقلت:

– بدأت آخد مهدئات، ماعرفشي ليه؟ بس تعبت من الأفكار..

قال دكتور سليم وقد بدا عليه أنه اكتشف شيئًا ما:

– مهدئات إيه؟!

– !!

– طب كملي..

قبل أن أخبره بمن ظهر لي في الخيال، ومن رأيته في الحقيقة، وقبل أن أُكمل سرد أحداثي، دخل ليقدم نفسه من جديد، طرق الباب وأذن له الدكتور سليم بالدخول، رمقني نظرةً خاطفة لم يُحدد اتجاهها بعد، تأملته بشراهة مفرطة، كدت التهمه بعيناي..

أمسك بأذنيه ونظر أرضًا ثم قال:

– خير يا دكتور قالولي إنك عايزني.

– إنت إزاي تخرج وإنت عارف إن مافيش غيرك إنت وعاطف؟! سايب القسم كله لعاطف!!

– آسف يا دكتور بس هالة كانت..

قال دكتور سليم معنفًا إياه:

– من غير تبرير، ما تتكررش، اتفقنا؟

أثناء تهديد الدكتور سليم له، نظر إليَّ خاجلًا ثم تمتم:

– اتفقنا.

حين ذلك كان عليَّ أن أقول كلمتي في هذه الجلسة، قلت معلنة ذهولي:

– سبحان الله! اللي يشوف دكتور كامل يقول ملتزم!

ليرد ببرود شاهق:

– أنا مش ملتزم خالص، فعلًا لسه متعرفنيش!

في بلاغة نطقت:

– الالتزام بيختلف من شخص لشخص ومن موقف لموقف، أحيانًا يتوجب على الإنسان إنه مايكونش ملتزم، وأحيانًا بعض التسَيُّب بيبقى التزام.

نظر إلينا دكتور سليم نظرة الطبيب النفسي ذاتها وقال:

– ماشي يا كامل، روح إنت شوف وراك إيه أنا قاعد مع صوفيا شوية.

أجاب الدكتور كامل بضحكة ساخرة:

– صوفيا ده دلع صافي، لا تليق بطبيب نفسي.

قلت بابتسامة عريضة برزت منها أسناني:

– آه دلعي.. مش عاجبك ولا إيه؟

احتد في وقفته وتغيرت نبرته:

– لا حلو، جوزك اللي بيدلعك كده؟!

قال "جوزك" عن عمد أو هكذا كان ظني، لكن سرعان ما صدق ظني فأكمل:

– يرجعلك بالسلامة.

عندما تتحدث وتنسى الناس من حولك، ربما لم أكتشف يومًا أني أعرت اهتمامًا لكلام الناس والقيل والقال، دائمًا ما خشيت الناس وكلامهم، ذهبت مني السعادة خوفًا منهم، هكذا علمني لؤي!

تحجج الدكتور سليم بحجة لكي يخرج ويتركنا وحدنا؛ عسى أن يستنتج شيئًا، خرج وفي نفس اللحظة، جلس كامل بهدوء، لمح اهتزاز قدماي فقال:

– هالة خطيبتي، زي ما لؤي جوزك.

ليته لم يرى توتري ولم ينطق بشيء، لقد زاد الطين بِلْة، كل كلامه وأفعاله تثبت لي أني لست مريضة وأني ما زلت في الواقع!

في اصطناع مبالغ فيه قلت:

– عادي! بتقولي كده ليه؟!

– أنا عارف إنك مش مريضة يا صافي، وعارف كمان..

أطبق شفتاه ووضع رأسه أسفل، وأغمض عيناه، ثم قال:

– يمكن أنا اللي مريض!

– لا اطمن أنت لسه دكتور، ولا نسيت اللي عملته فيا الصبح؟!

وضعت يدي اليمني على المكتب وقلت:

– أنت بتحب هالة؟

أجابني:

– إنتِ بتحبي لؤي؟

من أصعب الإجابات، أن يجيب أحد على سؤالك بسؤال آخر، إجابة صعبة حقًّا على السائل والمجيب، ربما تعديت حدودي في السؤال، وأجاب بسؤال أوقفني عند حدي!

نزل الدمع على خدي.

في صمت وهدوء، وضع يده على يدي وأمسك بها، ضاغطًا عليها قائلًا:

– إنتِ جميلة، أنا..

– إنتِ إيه؟!

كنت أتمنى أن يجيب وكررت له السؤال أكثر من مرة، لكنه لم ينطقها وضعت يدي بدون مقدمات على وجهه أتحسسه، مثلما فعلتها في الخيال ونزفت يدي دمًا، الآن أزرف دمعًا أصعب من الدماء، نعم أحيانًا يكون الدمع أبشع من الدماء حينما يحتوي بين طياته كلامًا لا يُترجم وإحساسًا لا يُعرف مصدره بعد، ومشاعرًا مرتابة ليس لها وصي أو لجام..

في استسلام ألقى نفسه بين ذراعي قائلًا:

– أنا بحبك، مش عايز أبوظلك حياتك زي ما بيقول لؤي.

– كان نفسي أشوفك حقيقة.

– أنا كمان نفسي أشوفك حقيقة!

– أنت كمان شوفتني في الخيال؟! تيجى نتجوز؟!

كان من المتوقع أن يتهمني بالجنون ولكنه الآن بين ذراعي، قال:

– بدور عليكِ من زمان، مش عارف أوصلك، حتى لما وصلتلك مش هاعرف..

نزع جسده من بين ذراعي فجأة، ولكن ما زالت روحه معي وروحي معه، فلقد تبادلنا أرواحنا بدلًا من تبادل القُبلات، التي تزول نشوتها سريعًا، أما الأرواح فتظل باقية ومعلقة في الأجساد، نبحث عن أرواحنا بداخلهم، ونعود لهم مرةً أخرى لنحيا من جديد!

اتجه إلى الباب مسرعًا، وقبل أن يخرج نظر إليَّ منتشيًا، بادلته النظر وسألته:

– أنت ليه بتعمل فيا كده؟!

كان يقولها لأول مرة بصوت قلبه:

– عشان بحبك!

– عشان بتحبني تسيبني؟! عشان بتحبني تبعد؟!

– أوقات البُعد بيبقى مفروض علينا.

– إحنا اللي بنوهم نفسنا بكده!

أخذت أفكر للحظات، إذًا نحن من نوهم أنفسنا بأن القُرب فرض علينا!!

من فرضه؟ ولماذا فرضه؟ لا أعلم، ولكنه قد تم فرضه، وقمت بتأديته على أكمل وجه!!

دخل الدكتور سليم ووجدنا في صمت فقال بعجل.

– إيه.. عرفتوا مين اللي قتل صباح؟

تراجع كامل عن الخروج وقال:

– صباح اتقتلت؟!

وقلت في ذهول لا أعلم مصدره:

– صباح ماتت؟

قال الدكتور سليم في اندهاش:

– صباح مين؟!

ضحكات تعلو من قلوب شبه محطمة ومن أشخاص أصبحت نفسيتهم صفرًا، صحيح أن الدكتور سليم لم يعلق على شيء، لكننا استمررنا في الهروب بضحكات يعلوها الألم، الذي لا نعرف مصدره..

تذكرت قول "سقراط": "إني على يقين بشيء واحد هو أني لا أعرف شيئًا..".

صدقت يا "سقراط"، هل يوجد علاقة بين "سقراط" وكامل؟ هل هناك صلة قرابة؟!

يقولون إن "سقراط" كان جميل الروح، وأشهد أن كامل أجمل منه!

بعد فترة من وقت لم يُحسب له، استعاد كامل نشاطه، وأخذ مكانته من جديد، وانضبط في وقفته، وأمسك ساعته زاعمًا ضبطها وقال:

– أنا هانزل أشوف الحالات الجديدة، واكتب التقارير..

عندما خرج كامل خرجت روحي معه، وجلس الدكتور سليم ينظر إليَّ محاولًا كشف ما أخفيه، كما ظننت، قلت في ارتباك شديد:

– أنا هاستأذن بقى..

– ليه مش هنكمل دردشة؟ خلينا نكمل من أول ما فضلتي ماشية على مهدئات، إيه حصل بعد كده؟!

استسلمت مرة أخرى ووضعت يدي مُسدلة على جوانب الكرسي، وارتجلت في الحديث:

– بدأت أشوفه قدامي! وسط الكتب، بين السطور، في كل صفحة، في المطبخ، في طبق الأكل، على الإزاز، في كل مكان وكل وقت..

– هو مين ده؟

– كامل، قصدي إنسان كامل..

– دكتور كامل؟!

بعد مباغتته لي بسؤال تحيرت في إجابته، قلت:

– آه، لا مش كده، أيوه ظهر لي الدكتور كامل في الخيال قبل ما أشوفه، لأني عمري ما شفته في الحقيقة، عارفة إنك مستغرب لكن أنا مش مريضة..

– صافي، المريض ما بيحسش إنه مريض، ولا بيحس بأعراض مرضه وبيشوفها حاجات عادية وطبيعية، ومع ذلك أنا هصدقك، إنتِ فعلا مش مجنونة، وهتخرجي النهاردة على بيتك ومش هاكتبلك علاج.

لا شك أن كلماته كانت بمثابة مهدئات سريعة المفعول التي طالما ابتلعتها كالمهدئات والمسكنات التي تمنحنا بضع دقائق للتنفس الهادئ، مسكنات الحياة هي التي تعزز فينا الحياة..

طلب مني الدكتور سليم أن أتجول معه في العنبر، وأخبرني أني سأكتشف نفسي هناك أكثر مما أتصور.

العنبر عبارة عن ممر طويل أو طرقة طويلة، على جانبيه غرف متقابلة، كل غرفة لها بوابة من حديد مغلغلة بالسلاسل، ويقف أمام كل غرفة حارس يرتدي قميصًا أزرقًا وبنطالًا أسود، يحمل صاعقًا كهربائيًّا.

أشار الدكتور سليم إلى أحد الحراس أن يفتح بوابة أحد النزلاء، وكانت غرفة رقم 201، كان الخوف يملأُني فأمسك الدكتور سليم بيدي، ودخلت معه بنظرات منتظمة، وخطوات هادئة أتفحص المكان، لأجد رجل يرتكن بجانب حائط تبدو عليه الأناقة، لولا جلسته هذه لظننته أحد الأطباء.

تواردت إليَّ الكثير من الأسئلة التي أجاب على معظمها الدكتور سليم بقوله:

– حاتم 24 سنة بكالوريوس هندسة، إسأليه أي سؤال هو عاقل مش مجنون.

اضطربت منه بعض الشيء متوجسة خيفة ما يُحتمل أن يفعله، كان منهمكًا في اللاشيء قال له الدكتور سليم بصوت عنيف:

– حاتم كلم مدام صافي.

أجاب بصوت مبحوح وعيناه متجلجلة:

– جايه تدرسي عليَّ صح! حاضر هوريلك الجنان دلوقتي.

وراح يطيح في أنحاء الغرفة ويتقلب على ظهره وبطنه ويصرخ بأعلى صوته.

– كلهم كلاب، كلاب.

أمسك الدكتور سليم به قائلًا:

– حاتم بلاش هبل صافي مش دكتورة، صافي عايزة تعرف اللي وصلك هنا.

قال بكل عقل وثبات وهدوء وكأن شيء لم يكن منذ لحظات:

– حبي أوصلني إلى الجنون.

أخبرني حاتم أنه أحب زميلته في الجامعة، وبعدما انتهى من دراسته وحصل على البكالوريوس ذهب ليخطبها وفي يوم خطبتهم بينما هو يلبسها الدبلة..

صِحتُ فيه قائلة:

– إيه اللي حصل وانت بتلبسها الدبلة؟

رد بمنتهي البرود القاتل:

– ماتت!!

لم يزد حرفًا، لكنه توجه بعينيه إلى ركن في الغرفة وذهب إلى عالم آخر، وأخذ يحاكيها ويخبرها أنه يحبها كثيرًا، ويطلب منها أن تقوم بتجهيز الغذاء لحين عودته من العمل (معذرة كان يكلم نفسه ويتفوه بكلمات كأن شخصًا آخر جالسٌ معه).

خرجت مع الدكتور سليم مقتنعة تمامًا أن حاتم ليس مريضًا، وأنه قد صنع بإرادته كل هذه الأوهام!!

طلب مني الدكتور سليم أن أذهب معه أيضًا إلى غرفة أخرى، فيها تعرفت على مريم التي تبلغ من العمر 27 سنة ترتدي قميصًا أرجوانيًا لامعًا وجونلة صفراء اللون مرصعة بالحلي، كانت هادئة في مشيتها، أنيقة في ملبسها، وفي مظهرها توحي لمن تحدثه أنها أميرة من الأميرات، أخبرني الدكتور سليم أنها تعاني نفس المرض "إسكيزوفرينا" حاولت أن أتحدث معها، لكني فشلت في جذب انتباهها لي، إنها في عالم آخر لا تريد تركه أو مغادرته إنها مع والدتها، متوحدة بها في الخيال..

علمت من الدكتور سليم أن والدتها توفيت منذ عام، وهي ما زالت في توهمها أنها تعيش معها، مثلما ماتت معها، تصرخ وتضحك حتى أنها صاحت ذات يوم، وسألها أحد الأطباء عن سبب صياحها؛ فأخبرته أن والدتها مريضة وفي حالة خطيرة..

بعدما رأيت حاتم ومريم لا أنكر أني أصبحت أكثر قلقًا وحيرةً من أمري،

هناك سر مازال مختفيًا، ربما لا أعلمه يومًا، لكن اللغز يكمن وراء مرضي أو توهم الأطباء أني مريضة، عندما خرجنا من العنبر وضع الدكتور سليم يده خلف ظهره قائلًا:

– إيه يا صافي شايفة حد في العنبر مجنون؟

– لأ، خالص معقول حبهم اللي جابهم هنا؟

– آه حبهم وصلهم إن الناس تشوفهم مرضى، وحبهم وصلهم لهنا، ماقدروش يدركوا الواقع.

– يعني إيه؟

– يعني هما اللي صدقوا وهمهم، وعاشو الدور، سابوا الخيال يتحكم فيهم، آه احنا بنعاملهم إنهم مرضى، بس عشان هما عايزين إننا نعاملهم كده.

كانت كلاماته مبهمة وعميقة، وخشيت أن يظن فيَّ الغباء، فنشطت ملامحي، ووضعت يدي في جيبي.

– آه حضرتك تقصد إنهم عايزين يعيشوا في المصحة؟

– أنا أقصد إنك دلوقتي مش مريضة أو في أول المرض، ممكن تدركيه وتشفي منه، برغم إني مستغرب إن مفيش صدمة قبل المرض، لكن خلينا نقول إن الجواز كان صدمة بالنسبة لك.

– أمممممم

أعلن غبائي عن نفسه ولا شك أن الدكتور سليم لاحظ هذا فأمسك بذراعي محذرًا:

– صافي متصدقيش خيالك وأوهامك.

– مش مصدق اللي أنا حكتهولك؟

– مصدق، بس عيشي الواقع.

ترك ذراعي وقال في تبرم شديد وهو يشير بسبابته:

– لو فضلتِ كده هيبقى ليكِ غرفة جنب اللي شوفتيهم، وهيبقى ليكِ ملف باسم حالة رقم..

كان عليَّ أن أقنعه بأني مقتنعة بما يقوله، وهززت رأسي معلنة الإيجاب، وفتحت راحتي يدي معلنة الاستسلام.

ابتسم لي، وبادلته الابتسامة الرسمية ذاتها، وذهب كل منا في طريقه.

أثناء سيري في الطرقة انقطعت الأضواء...

ظلامٌ معتم ومخيف، جو مليء بالكآبة, وهواء بارد، أصوات غير مفهومة، وأشباح تتحرك، هل انتقلت إلى المقابر؟!

توجست من المكان ومن الهواء ومن الزمان، توجست خيفة من كل شيء حولي ونهضت لأجري بعيدًا ولكن..

توقفت قدماي، صحت بصوت عالٍ ولكني لا أستطيع سماع صوتي!!

هل ذهب صوتي؟! أم أن الأحبال الصوتية هربت كما يهرب البعض!!

تعالت ضربات قلبي وتزايدت أنفاسي، وهرب الدم من جسدي، واشتغل الدوار برأسي و..

لم أشعر إلا بصوت ملك وهي تبكي، كانت الساعة التاسعة تقريبًا موعد وصول لؤي إلى مصر..

في الوقت ذاته، دق جرس الهاتف لترد ملك وهي تبكي:

– ألو.. لا ما فيش والله هي كويسة.. حاضر.

قالت ملك في ذهولٍ بائس:

– صافي، بابا بيسأل عليكِ خدي كلميه..

أبي!! هو حياتي الهاربة والمزيفة أيضًا، حياتي التي تمنيتها ولم أعشها يومًا، يعمل أبي أستاذًا جامعيًّا، علاقتي به كالعلاقة بالنباتات الصحراوية، لم يفعل شيء سوى أنه أنجبني، لكن الحق يُقال، ربما أجده جواري في بعض المناسبات، نعم أذكر أنه حضر فرحي وأذكر أيضًا أنه قد حضر حفل تخرجي من الجامعة.

لا أخفي سرًّا لم أقصد أن أضيع حقه يومًا، لكنه تعمد ألا يقوم بدوره الحقيقي، واكتفى التمثيل في دور الأب.

دائمًا ما كان يقول أن الأب يتألم ويفعل هذا وذاك من أجل راحة أبنائه، ولم نرى ذلك أبدًا، بل كانت راحته آلامنا!!

كم تمنيت أن يحتضنني مثل سائر الآباء، لكنه كان يعاملني كطالبة بليدة لديه، إن سألت يُجِب، وإلا فلن يسأل، اندهشت من اتصاله، لكني أخذت الهاتف لأرد:

– أيوه يا بابا أنا كويسة.

– ماشي يا حبيبتي خلي بالك من نفسك.

هذا هو أقصى ما فعله من وجهة نظره، أتذكر إني قد رسمت يومًا لوحة بها أب يحمل ابنته من عنقها، وكتبت عليها: "ليتك لم تحن عليَّ وتركتني أرضًا".

ما زالت أذكر ذلك اليوم جيدًا، اليوم الذي استشاط فيه الجميع غضبًا،

حتى عندما رآها لؤي، قال أني أظلمه كثيرًا، وأنه لا يستحق مني كل هذا، على الرغم من أن ملك تعاني مما أعانيه بالمثل، لكنها كانت لا تهتم بمثل هذه الأمور!!

أشعر الآن أني مريضة حقًّا!!

لاحظت ملك أني منهكة جدًّا، ما أصعب أن تشعر بألم لا تعلم مصدره، قالت بحنان واضح عليها:

– مش هينفع تخرجي خالص دلوقتي، إنتِ ماشوفتيش من شوية كنتِ عاملة إزاي!!

– كنت عاملة إزاي؟!

قبل أن تُجيب على هذا السؤال، سمعنا طرقات على الباب متتالية، فتحت ملك الباب، لكنها لم تجد أحد، أزاحت الستار عن الحائط الزجاجي ووجدت الطرقة خالية، قالت بابتسامة:

– باين اتهيألنا!!

فتح الباب سريعًا واحتضنني بذراعيه، مقبلًا رأسي وقال في لهفة:

– وحشتيني وحشتيني قوي يا صوفيا، قلت أعملهالك مفاجأة.

منذ أن عرفت لؤي وأنا أعلم أنه تقليدي بحت، نمطي للغاية توقعت أن يتصل بي من المطار، ليخبرني إنه قادم، ثم يأتي وعند دخوله المستشفى يخبرني أنه سيصعد، يطرق الباب ويدخل، فاجأ توقعاتي وتقاليده الاعتيادية.

قالت ملك:

– حلو جو "الساسبنس" اللي عملته ده، تخبط على الباب، مالقتش لحد، تدخل جري عليها..

ضحك لؤي وقال:

والله ما خبطت، بس إيه رأيك في "النيولوك"؟!

بينما ملك تجامل لؤي على "النيولوك" كنت أنا في حيرة، من طرق الباب يا تُرى؟!

أخذني من حيرتي بسؤاله:

– إيه رأيك يا صوفيا؟!

نظرت إليه برتابة، لأجده يرتدي بنطلون جينز، أسود اللون، و"تي شيرت" لونه وردي فاتح، على غير العادة، فقد اعتاد لؤي ارتداء القميص المقلم، هذا قميص نمطي وتقليدي، أذكر أن أبي يرتدي مثله منذ السبعينات.

لكنه الآن حسن المظهر وجيد الهندام، لم أستطع المجاملة يومًا ولكن كان تعليقي:

– جميل!

– إنتِ أصلًا أجمل حاجة في الحياة.

كلمات لؤي تغيرت ومفعمة الآن بالحنان والشوق، وليست كلمات باهتة كعادته، ربما يريدني الليلة!!

انكمشت ملك بحياء واضح على وجنتيها، وأدارت النظر بعيدًا ثم قالت:

– طب أنا هاروح بقى، وهاجيلك بكرة إن شاء الله.

– ماشي يا ملك، بالله عليكِ لو عرفتِ تجيبي ماما، هاتيها معاكِ.

– حاضر.

أشار عليها لؤي أن يقوم بتوصيلها إلى البيت، لكنها رفضت وقالت:

– أنت خليك هنا مع مراتك.

ضمني لؤي أكثر، لا أنكر أني كنت سعيدة، لكني أعترف أنها كانت سعادة مقتولة بسؤال أطال حيرتي هو "من كان يطرق الباب يا تُرى؟!"

قضينا اليوم سويًّا، لا أعلم كم من الوقت ذهب في اللاشيء، كما ذهب عمري سابقًا معه أيضًا!!

ها الليل قد أتى ببرودته وسكونه، فعلاقة البرد والسكون نسبية أو طردية، أتى الليل بسكون تام، كان عليَّ أن أمثل إني نائمة لكي يذهب لؤي أيضًا، فلقد أجهدته معي، لا بد أن يرتاح بعض الوقت، أثناء تمثيلي هذا، دخل الدكتور كامل وجلس مع لؤي ودار الحديث كالتالي:

– إيه فيه أخبار جديدة؟!

– والله يا لؤي إحنا عارفين كويس إيه هي أسباب الأعراض النفسية.

– تمام ومش هتزول تقريبًا، إيه الجديد بقى؟

– الجديد، إن الأعراض الفيسيولوجية ملهاش سبب واضح!!

– صافي كانت بتاخد مهدئات، يمكن هي اللي أثرت عليها؟!

– ده أكيد.

بعدما انتهيا من حديث فيه شيء من الغموض، خرج كامل ودخل لؤي في النوم.

بينما أنا والليل رفاق، يا ليته ليل سرمدي، الهدوء في الليل يزيده جمالًا، فجأة استيقظ لؤي، ووقعت عينه بعيني وبكى، كنت أبكي أيضًا بداخلي.

فلنبكي جميعًا فكل منا يبكي بداخله، ولكن بصوت يملؤه الشجن

والحزن قال:

– صافي إنتِ تعبانة مني أنا؟ عايزة ننفصل؟

من أين جاء هذا الشعور إلى لؤي؟ هل كما يقولون "المخلص يشم رائحة الخيانة!!"

لكني لست خائنة أو مريضة، لا بالفعل أنا خائنة ومريضة!!

عالم من الحيرة والتوتر، وبعض من مشاعر لا تسرد، أعيش فيها وحدي!!

أمسك يدي وانهمكت في البكاء بدون أن أنطق كلمة، وظل يُراضيني ويعذبني بطريقته:

– خلاص يا حبيبتي مش تعيطي، خلاص اهدي، هعملك اللي إنتِ عايزاه!

ابتلع ريقه وجفف دمعه وقال:

– خلاص بقى، وحياة مامتك!!

– أمي؟!

دائما مسلوبة الإرادة، أشعر أنها تشبهني في أشياء كثيرة، منها أنها تبكي داخليًّا، ومنها أيضًا أنها منقادة من خلال أبي بطريقة عمياء، راضية عن حياتها بالإكراه، يعلم لؤي كم أحبها، بل يعلم الجميع أني أحبها بكم لا يذكر!!

تحتمل أمي عبئًا كبيرًا وكثيرًا من البؤس، ومزيدًا من القهر، لا تعي بكمية التعاسة التي تعيشها ومع ذلك، ما زالت تنشد الحياة.. أخبرني لؤي أنه سيذهب لإحضارها، حتى أصبح أهدأ من ذلك وأشعر بالراحة أكثر..

فأمي لا تستطيع المشي، عاجزة تجلس على كرسي، ورؤيتها ضعيفة، ذهب نظرها مع شبابها، وعجزت قدماها عن السير مثل حياتها!!

بلهفة وشوق وامتنان قلت:

– آه، من فضلك روح جبهالي، وحشتني قوي.

– حاضر، شوفي جبتلك إيه وأنا جاي..

وهمّ ليفتح حقيبته ولكني قلت:

– لا مش وقته يا لؤي.

خرج لؤي وما لبث برهة حتى دخل كامل، واضعًا يده في جيبه ومبتسم، كان موعد أذان الفجر، تباطئت خطوات قدميه، وسألني:

– هو لؤي مش هنا؟

– ماشوفتهوش وهو خارج!

– أنا اللي خبطت على الباب على فكرة، ولما لقيت لؤي جاي مشيت بسرعة.

– تقصد استخبيت.

– آه، وماعرفش ليه؟

– طب قوللي كنت جاي ليه؟

في تسرع لذيذ قال:

– عشانك!!

نظرنا لبعضنا طويلًا، وازدادت أشواقنا، اقترب مني وطبع قُبلة على خدي،

وقال بهدوء وأنفاس عالية:

– أنا بحبك يا صافي.

– أنا كمان بحبك قوي، ممكن ماتبعدش!

– مش هينفع، إنتِ ست متجوزة وأنا متنيل خاطب.

– فيها إيه؟ لما أتطلق وإنت تفسخ خطوبتك، صدقني أنا حاسة إني أعرفك من زمان ومشدودة ليك قوي..

انتزع كامل جسده مني وخرج مسرعًا إلى باب الغرفة، أدار رأسه ناظرًا إليَّ بشيء من الحسرة والندم!!

تركني داخل حيرتي كعادته، كيف أتحرر من لؤي؟ وكيف أبدأ حياتي مع كامل؟ كيف أترك لؤي وأنا على يقين أني حياته؟ هل سأكون أنانية؟ أم سأعالج خطأ قد ارتكبته منذ معرفتي بلؤي؟!

أم كان كامل حبه خطيئة مازلت أسعى لارتكابها وادعو الله أن يتمها علي.

ماذا أفعل؟! وماذا عساي ألا أفعل؟! أين أنا؟!

وجدت نفسي بداخل حجرة واسعة فارغة من كل شيء ومعتمة للغاية، وصوت لؤي يتوسل إلي ألا أتركه، ابتعد الصوت ببطء حتى تلاشى، في حين أني أشعر بيد تربت على يدي، فتحت عيناي، ووجدت أمي بجواري هنا يكمن معنى الأمان!!

قالت بحنان كعادتها:

– إيه يا حبيبتي صحيتك؟!

– لأ، إنتِ وحشتيني قوي، مش بتتصلي بيا ليه؟!

– معلشي يا حبيبتي، والله مابلاقي حد يطلبك ليا، أختك عندك وباباكِ إنتِ عارفة!

في اللحظة ذاتها دخل الدكتور سليم.

دائمًا حياتنا أحداث متتالية، حدث ينزعك من حدث، وتغيير مفاجئ، قرارات غير مناسبة، وأفعال ارتجالية، أستطيع تغيير كل شيء، ويستطيع كل شيء تغييري، نغُير ونتغير، إلا لؤي!!

كان تغيره من حياتي مستحيل مفروض يجب أداؤه!!

في زحمة أفكاري قال الدكتور سليم بنبرة تفاوض:

– إيه يا صافي هتروحي النهاردة وتسمعي اللي قولتلك عليه؟!

– حاضر!

حاضر! الكلمة التي يعشق لؤي سماعها مني، اعترض لؤي على خروجي من المستشفى، وقال:

– إيه يا دكتور هو اليومين دول الحالة اللي بتقرر تخرج إمتى؟

حفظ الدكتور سليم ماء وجهي وأخبره بأني لست حالة، وهمس إليَّ قائلًا:

– قولتلك أقرب الناس ليكي هيعتبرك حالة!!

– هو لؤي أقرب الناس ليا!

ربما يكون هناك نظرية في علم النفس تقول أن من سبب لك إهانة أمام شخص ما، لن تهدأ حتى تردها له أمام نفس الشخص!! وغالبًا ما تظل في اللاوعي حتى وقتها المناسب!!

أحس لؤي بالحرج أو لم يعِ كلامي كعادته، لكن من المؤكد أن الدكتور

سليم فهم ما أقصد، وما لم أقصد أيضًا، فأطباء وعلماء النفس لديهم احتمالات وإدراكات لما تقول وما لا تقول، ينتظر الفعل ورد الفعل، ألقى نظرة أخيرة وأيضا كلمة أخيرة، وخرج بدون أن يزيد شيئًا!!

في حين وضعت أمي يدها على يدي، سائلة:

– هتروحي عندنا ولا على بيت جوزك يا حبيبتي؟!

أجبتها بسرعة طفلة تستنجد بأمها:

– أكيد هروح معاكي طبعًا!

نظر لؤي إلى أمي وأعاد النظر إليَّ في اندهاش، لم يعتد مني على لغة التأكيد هذه، وكان يود أن يقول شيئًا، لكنه لم يقُل..

آثر الصمت هذه المرة لأنه رأى أن الكلام لن يجدي بشيء، فلم يلمح هذا الإصرار مني قبل ذلك، فأنا التي طالما كنت تحت طوعه، لم أهم يومًا بفعل شيء حتى يأذن لي!!

كنت أنتظر من لؤي ثورة على قراري، ولكن تغيرت ردود فعله، كما تغيرت أفعالي، ليكن ما يكن فهذا ما أسعي إليه، التغيير!!

ولنرى ماذا سيحدث بعد التغيير؟

نظرت إلى أمي التي ما زالت نائمة في عالم آخر ربما عالم الأحلام، بدلًا من عالم الكوابيس الذي تعيشه في يقظتها، اليقظة والنوم بعضنا يعشق اليقظة التي يحقق فيها أحلامه، وبعضنا يعشق النوم الذي يحاول أن يحلم فيه، كل منا في عالم آخر ولكن أجسادنا في عالم واحد!!

ما أحبه في لؤي إصراره على امتلاكي، وما أبغضه في كامل ضعفه وعجزه عن التفكير أو محاولة امتلاكي!!

ارتديت عباءتي وخرجت من الغرفة، لأجد كامل في نهاية الطرقة، بدت لي المسافات طويلة، طويلة جدًّا، كان كامل بعيدًا كل البعد، بعيد إلى ما لا نهاية.. تقدم كامل بضع خطوات، وذهبت إليه، قال بصوت مبحوح أقرب للبكاء:

– لؤي قالي إنك هتمشي النهاردة، قولت أسلم عليكِ، صافي إنتِ مش مريضة، ولا بتتخيلي من فراغ، الحكاية كلها إن..

قبل أن ينطق اللغز الذي مازلت أجهله، جاء لؤي، ونظر إليَّ معنفًا، لكني لم ألاحظ أني قد وضعت يدي على يد كامل، فأنهى كامل الحديث بقوله:

– في رعاية الله، بعد اذنكم!!

العجيب أن لؤي لم يعلق على هذا، إلا بنظراته التي تجاهلتها، ذهب كامل بعيدًا وطلب مني لؤي أن أنتظره في السيارة حتى يأتي بأمي.. قبل أن أنزل إلى الدور الأرضي، اتجهت إلى مكتب كامل وهناك قلت له:

– هشوفك تاني فين؟!

– هشوفك بإذن الله.

كان سؤالي لهدف آخر، ولكن لعل الأفضل ما فهمه، لكي أتأكد من أني سأراه حقًّا، وتمنيت أن نخرج من حيز الكلام الرسمي، وأتت الرياح بما أشتهي فقال:

– أنا بحبك يا صافي.

– وأنا..

أعطاني رقم هاتفه، وطلب مني أن أتصل به في أي وقت أشعر فيه بتعب أو إنهاك نفسي، أنهى الجلسة رسميًّا، وتغيرت ملامحه وطلب مني أن أذهب إلى لؤي!!

في الطريق سألني لؤي متعصبًا:

– هترجعي البيت امتى إن شاء الله؟

– ماعرفشي يمكن مارجعش!

وقتها أوقف السيارة دفعة واحدة، وصرخت أمي لاهتزازها، وبصوت مزعج قلت:

– إنت غبي، إيه اللي عملته ده؟

أخذ نفسًا طويلًا وضرب بيده على "التابلوه" قائلًا:

– يعني إيه مش هاترجعي، عايزة تطلقي مثلًا؟!

– وماله، هبقى أذنبت؟!

– لأ، هبقى أنا اللي أذنبت، وأنا مش هارتكب أبدا ذنب زي ده!

قالت أمي:

– إيه اللي بتقولوه ده، الله يهديكم، معلشي يا ابني صافي أعصابها تعبانة!

نظرت له أن يصمت، حتى لا أزعج أمي، ونتناقش وحدنا، نسيت أن هذه العادة قد تعلمتها منه، قال لي ذات يوم، أن نقاشنا يجب أن يكون في وجودنا وحدنا فقط، بدون أن يتدخل طرف آخر، شيء طبيعي أن أعتاد على عاداته، وربما أتصرف بسلوكياته، عندما وصلنا فتحت ملك الباب، واحتضنتني، لم تلاحظ أنها تحتضن إنسانة خاوية من الروح، لم أبادلها الشوق، فقط تركت نفسي بين ذراعيها، دخل لؤي وذهبت أمي إلى غرفتها لا حول لها، دخلت حجرتي وذهبت ملك لاحضار كوب من العصير إلى لؤي، سألني لؤي بعدما أغلق باب الحجرة:

– إنتِ بتحبيني؟!

– أنا أعصابي تعبانة ومش عايزة أتكلم!

– بتهربي من سؤالي؟!

– أنا بهرب من نفسي، مش منك، لؤي من فضلك سيبني وأخرج، مش عايزين نجرَّح في بعض.

– لا، يا هانم جرَّحي، مين يجرح في مين؟! إنتِ نسيتى موضوع الخلفة؟!

– يمكن بتعملي كل ده عشان متخلفيش مني..

تمالكت أعصابي التي افتقدتها بسببه، وفتحت حقيبتي لتناول المهدء ولكنه أصر على خروجي من الشعور، ظل يُهدد ويتوعد، أضاف كلمة جعلتني أثور على نفسي:

– ما تفكريش نفسك ضحية!

– فعلًا أنا مش ضحية، ولو على إجابتي لسؤالك "إنتِ بتحبيني؟"، فإنتَ عارف الإجابة كويس، إيه لازمتها أنطقها ونتجرح إحنا الاثنين.

جلس هامد الجسد، تمتلأ عينيه الدموع والكلمات:

– ممثلة عالمية، فهمتيني إنك بتحبيني طول الفترة اللي فاتت، مع إني كنت متأكد من عدم حبك ليا!!

كان باستطاعتي أن أتحمل كل إهانته، ولكن عندما ظن أني خدعته، كان ينبغي عليَّ أن أخبره وأدافع عن نفسي، مرة واحدة على الأقل، طرقت ملك الباب، فأمرتها أن تتركنا بضع الوقت، وقفت أمام المرآة ونظرت إلى نفسي، وضعت يدي على وجهي أتحسس ملامحي التي أبهتها الزمان وقلت:

– كنت ليك، كنت بتاعتك، اللي بيمثل ما بيجيش على نفسه عشان غيره اللي بيمثل بيخون..

– كامل! مش خيانة؟!

ارتعش جسدي، هل علم شيئا؟ أم أنه مجرد شك؟ ولو كان شكًّا، فهل سيقطع شجرة وصالنا، ليت ذلك يحدث من جهته، ولكني رددت عليه ردًّا قاطعًا:

– عشان كده محبتش أمثل!!

– يعني أنا ظالمك كده، وإنتِ يا عيني الضحية؟!

– إنت حاسس إيه؟!

ربما وخزه هذا السؤال، فراح يبكي ويضعف أيضًا:

– آه ظالمك في كل تفصيله، إنتِ جيتي على نفسك عشاني، عشان كده إنتِ طالق، إنتِ أسعدتني كتير، جه وقت أحررك وأسعدك.

– هتعمل إيه من بعدي؟!

هعيش عادي خالص، وهادور على عروسة إنتِ عارفاني ماقدرش أعيش من غير جواز، لأ وكمان هافضل أسأل عليكِ، الحياة مش بتقف على حد، الحياة بتتعاش.. يمكن إحنا اللي بنوهم نفسنا إنها مرتبطة بشخص معين!

عندما يقرر الرجل ألا يظهر ضعيفًا، اعلمي أن كل ضعفه سيظهر من بين كلماته التي تضاد مع أفعاله، يعتقد الرجال أنهم حين يضعفون، يستطيعون ألا يظهروا هذا، لكن المرأة الحمقاء فقط هي التي يَخْفى عليها ذلك الضعف!

مرة واحدة لم أجده داخل الحجرة..

ولكن ملك دخلت في شك أن لؤي قد علم ما بيني وبين كامل؟

ولكن ما الذي بيني وبين كامل؟!

قالت ملك:

– مالك؟

أردت أن أخفي عليها خبر انفصالنا حينًا من الوقت، ولكن هل انفصلنا بالفعل؟!

هل الانفصال هو كلمة "طالق" أو كلمة "وداعًا"؟!

تنفصل الأجساد حينما تنفصل الأرواح، وأعلم أن روحي ما زالت معلقة بين كامل الذي لم يحاول قبضها وبين لؤي الذي مازال مصرًّا على قبضها مرة أخرى، ما زلت أشك أننا انفصلنا، كيف ولم أعِ الحياة إلا معه؟!

ولكن كيف لا؟ فالجنين ينفصل عن أمه وقد خُلق بداخلها!!

تعالى صوت ملك بعصبية:

– ما تردي يا صافي؟ إنتِ منفضة ليه؟

– معلشي يا ملك أنا عايزة أنام، روحي إنتِ دلوقتي!

بعد مرورعدة أيام تاهت فيها الأفكار من رأسي، وتوقفت عن أخذ المهدئات، قررت الخروج إلى حياة جديدة إلى عالم سيلونه لي كامل.

تذكرت أنه أعطاني رقم هاتفه، لكني لم أتصل به، وقررت أن تكون مقابلتي به صدفة، فهناك نظرية تقول: "أن ما تعتقده سيكون!! ولكن كنْ مؤمنًا باعتقادك!".

لا أخفي أنني كنتُ سبب في هذه الصدفة، ذهبت إلى كافيه بجانب المستشفى التي أعلم أن كامل سيمل من جلوسه فيها ويذهب إلى هذا الكافيه يومًا ما في ساعةٍ ما، ربما تكون تلك الساعة وذلك اليوم، وهناك وجدته، فقال:

– صدفة مترتب لها احتمال؟!

– كامل.. وحشتني جدًّا.

جلست على الكرسي المقابل، وتركت يدي على الطاولة عن عمد، أشار للجرسون أن يأتي وسأل:

– أخبارك؟

– ماليش أخبار.. قصدي.. هو إنتَ..

لاحظ كامل ما بدا عليَّ وما أعجز عن وصفه، فقال وهو يترنح على الكرسي إلى الخلف:

– إنتِ كمان وحشتيني أكتر بكتير.

أعطاني "المنيو" وأشار بإصبعه إلى القهوة، وقال:

– نشرب قهوة؟ ولا تحبي إيه؟

– أحب اللي تحبه!

– لسة فاكرة الكلمة دي؟!

بهدوء نظرنا معًا للجرسون الذي وضع أنفه بيننا، فأعطاه كامل "المنيو" وطلب منه أن يحضر القهوة..

لاحظ كامل يدي التي مازالت على الطاولة، فقرب يده من يدي،

فأغمضت عيني وقلت:

– عندي ليك مفاجأة..

قبل أن يرد وقبل أن أكمل، دخلت في المناقشة بدون سابق إنذار، قائلة:

– مفاجأة إيه إن شاء الله، حامل؟

علمت من هي عندما قام كامل من كرسيه مذعورًا، قائلًا في اندهاش:

– هالة!!

كانت قصيرة إلى حدٍّ ما، ترتدي فستانًا مليئًا بالزينة، متعدد الألوان، متبعثر شعرها حول رقبتها، وكانت شبه جميلة، ولكن ملامحها تقول أنها عنيدة، عيناها ليست صافية، وصوتها صاخب..

كان عليَّ أن أصلح من الموقف شيئًا فوقفت قائلة:

– أهلًا يا هالة، أكيد إنتِ خطيبة كامل، أقصد دكتور كامل..

– وأكيد إنتِ مريضة عنده، أقصد حالة!!

كان رد كامل حينها غير متوقع من شخص مرتبك وحائر، قال في ثقة واتزان يليق بطبيب نفسي:

– هالة! الزمي حدودك صافي صديقة مش حالة ولا حاجة!!

لن أنكر أني اندهشت من رده واتزانه، ربما أدرك الآن أنه طبيب نفسي عليه أن يهدأ من روعه ويظهر ثقته واتزانه، أو ربما أراد ما أتمنى!!

خلعت "دبلتها" ووضعتها في يده ثم أطبقت يده قائلة:

– فرصة سعيدة، يا دوك!!

الدهشة هي حالة من عدم الوعي وبطء شديد في الإدراك، كنت في كامل دهشتي حينما غادرت ولم يلقِ لها بالًا، بل وضع "الدبلة" في مطفأة السجائر، وكأنما كان ينتظر هذا.. سألته في خوف من الإجابة:

– أنا بوظتلك الدنيا؟!

– عمرنا ما كنا لبعض، يمكن تكون أنسب لغيري لكن مش ليَّ..

وضع يده على يدي وقبل أن يقول شيء، دق جرس هاتفه فـ ردَّ:

– ألو..

فجأة تغيرت تعبيرات وجهه، وذهب بعيدًا، في حين وضع الجرسون القهوة، وبينما أنا أرتشف شيئًا من فنجانه، جلس منزعجًا وقال:

– قولتي لي المفاجأة إيه؟!

– مالك بس؟

– جاوبي..

هذه هي لغة لؤي الإصرار، دائمًا ما يصر على كل شيء حتى يبلغه، كان يُصِر على أني له، يُصِر على ما يريد، بل ويعرف ما يريد، أعلم أنني مراده، أو كنت مراده لذلك كانت إرادته الجامحة وإصراره الفياض، بعد إرادة الله سببًا في كوني معه!!

قبل أن أجيبه، وضع الحساب على الطاولة تحت الفنجان، وذهب!!

تركني وغادر كعادته، ووقعت في حيرة كعادتي!!

عندما خرجت من الكافيه، كانت الشمس باهتة، وكان الجو مليء بالغيوم.

كتبت قديمًا: "أن الجو يتغير على حسب مزاجي، ونفسيتي!!".

كنا في حوالي الساعة الرابعة عصرًا، ربما كان وقت غروب الشمس، كم أعشق ألوان الطبيعة في الغروب خاصة، تختفي الشمس معلنةً اعتذارها عن العمل ليلًا، لتنتشر الأشواق والحنين تعسفًا لحين رجوع الشمس مرة أخرى، أتذكر الآن "دراكولا" هل هذه الأسطورة استوحت لخيال مؤلفها من هذا النبع؟!

كان لؤي في حياتي كشمس تضيء ولا تدفئ، وعندما التقيت بكامل، وجدت الدفء، وعرفت معنى العتمة..

فمن أين لي أن أستمد الضوء والدفء معًا؟!

الحركة!! نعم هناك علاقة بين الحركة والدفء، لذلك قررت أن أسير على قدمي بدلًا من الركوب، تركت السيارة وذهبت أتجول..

بينما أنا أسير أوقفتني تلك الشجرة!!

نظرت لها بإمعان، هي من أوقفتني.. بل هي من غيَّرت مجرى حياتي، ينقصنا في هذه الحياة الكثير، معلوم أن الحياة ناقصة ولكن مما نفتقده بشدة، هو التأمل!!

عندما تأملت هذه الشجرة النابتة، بصمودها وقوتها، تعجبت من شموخها وقد مر عليها حينٌ من الدهر، لا تهزها رياح عاتية، تعلن انتصارها على هذه الأرض، مأوى للطيور وبعض الحشرات، مأوى أيضًا للبشر، لها أهمية كبيرة في الحياة، ومع ذلك هي ثابتة لا تتحرك، هل تستطيع تغيير الكثير وأنت واقف مكانك؟ هل تقدر أن تظهر أهميتك وأنت لم تتحرك يومًا؟ كم تمنيت أن أكون شجرة!

ما هذا الهراء؟!! شجرة متفرعة!!

في وقفتي هذه وفي تأملي هذا، سمعت صوتًا ينادي.

– مدام صافي

دكتور عاطف!! يبدو أنني أذهب إليهم بإرادتي!!

أعلم أنه حينما تريد أن ترى شخصًا ما، توقع مقابلة أي شخص آخر لم ترتب لمقابلته من قبل!!

– أهلًا إزيك يا دكتور.

رفع أحد حاجبيه وقال في استغراب:

– إيه اللي جابك هنا؟!

– هو ماينفعش أمشي من هنا ولا إيه!!

– لا عادي، على ما أعتقد إنك من أكتوبر، إيه جابك العاشر..

أسئلة مملة ومقابلة مملة أيضًا، ولكن فُرِضَ علينا أن نتعامل مع البشر بألوانهم، لا أعلم هل لاحظ حكة أنفي وزفيري المتصاعد أم لا؟! ولكني قلت:

– أنا كنت متجوزة في أكتوبر لكن أهلي في العاشر.

لم يلاحظ تبرير وجودي هنا بجانب المستشفى، لكنه لاحظ شيئًا آخر لم أعِ إلى نطقه، فقال:

– كنتِ متجوزة؟!!

– أنا قلت كنت؟! أقصد متجوزة هناك، وبعدين إنتَ رايح فين؟

ربما هناك أيضًا نظرية في علم النفس تقول: "إن الشخص الذي يلفظ كلمة "وبعدين" يريد تغيير مجرى الحوار، وشغل المستمع عن الموضوع..!!".

– رايح المستشفى، عمومًا فرصة سعيدة!!

تبعته بنظري حتى دخل المستشفى، وبينما أنا في زحمة الأفكار دق جرس هاتفي لأرد:

– ألو..

– واخدة راحتك إنتِ كدة؟!

– عايز إيه يا لؤي؟

– عايزك تحترمي نفسك شوية.

لم أستطع تحمل أكثر من هذه الجملة أغلقت الهاتف، ذهبت إلى الكافيه مرةً أخرى، وهناك وجدت الجرسون، طلبت منه أن يعطي مفاتيح سيارتي إلى كامل وأن يخبره أني لا أستطيع القيادة، ويطلب منه أن تبقى المفاتيح معه لحين أن أقابله، وافق الجرسون بمبلغ من المال وابتسامة زائفة..

وأنا في طريقي إلى البيت، قال سائق التاكسي:

– بالصلاة على النبي كدة، حضرتك أصلًا أصلًا من العاشر ولا إيه؟

عندما يكون سائق التاكسي "حشريًّا" وقتها فقط تشعر بمعنى التطفل!!

– آه من العاشر.

– سبحان الله، العاشر مافيهاش قمرات كده، مش عارف ليه شكلك من المنصورة؟

– لأ، وبعد إذنك بطل كلام.

– أومال لمؤاخذه هانسلي وقتنا بإيه؟!

– يووووووووووه

نطقتها بطريقة مملة، تجعل من أمامك يكف عن التطفل، وبالفعل نجحت في ذلك فقال جملته الأخيرة:

– خلاص، تشرفنا يا "موززمزيل" وعليا الطلاق "موززمزيل" كان يضغط على "الزاي" هكذا "موززز.." هل لديه مشكلة في النطق؟!! ربما!!

عندما دخلت البيت كانت أمي نائمة, طرقت غرفة ملك ودخلت، لأجدها تتحدث في الهاتف، لم يظهر عليها ارتباك أو تغير، ولكنها رفعت صوتها قائلة:

– حاضر، هاشوفك بكرة يا حبيبتي، سلام.

أنهت المكالمة، لم أسألها عن شيء ولكن ابتسمت فقط وفتحت دولابها وقلت:

– مش عندك فستان حلو كده، أخر..

– إنتِ كنتِ فين من الصبح؟!

كانت إجابتي في شيء من التغابي حتى لا تسألني عن شيء آخر:

– كنت في مكان!

قبل أن تندهش وتسأل ثانية قلت:

– ملك أنا مش صغيرة، أنا أختك الكبيرة ومع ذلك مابسألكيش إنتِ رايحة فين وجاية منين! خلينا نعيش حلو مع بعض!

أزعجتها كلماتي أو قُل تصرفاتي فصاحت بي:

– ليه؟ إنتِ قررتِ تعيشي هنا على طول؟!

حذرتها قائلة:

– ملك اتلمي ووطي صوتك، ومالكيش دعوة بحياتي، مش هاكرر كلامي تاني.. أقعد هنا، أقعد هناك ماتشغليش بالك، إنتِ فاهمة؟!!

نظرت إليَّ دامعة، وقالت بشيء من التحسُّر:

– على فكرة يا صافي إنتِ بدأتِ تتغيري فعلًا، لكن للأسوأ..

تركتها وقفلت الباب بقوة، كان من المفترض أن أرد عليها أحسن من ذلك بل كان عليَّ أن أبكي وأقول لها:

– كدة يا ملك مش عايزاني في البيت؟ طب والله لأنا مروحة.

وتبدأ هي وأمي في تهدأتي، حتى اتصل بـ لؤي وأرجع لبيتنا!!

ولكن ذلك لم يحدث لأن التغير قد بدأ بالفعل..

دخلت حجرتي وألقيت بجسدي على السرير، قبل أن أفكر في اللاشيء، دق جرس هاتفي، ظهر رقم مجهول لأرد:

– ألو..

صوت أنين موجع ونفس عميق ثم:

– إزيك يا صافي؟ أنا آسف على اللي حصل الصبح.

ارتبكت بعض الشيء وقلت:

– لا، عادي، ما فيش حاجة..

– أنا خايف عليكِ!

لم أفهم سر خوفه عليَّ! يعلم لؤي أني أسعي دائمًا لفك شفرة غموض أي شيء حتى لو علمت أني لن أصل إلى نهاية أو نتائج، ولذلك قال:

– ممكن أشوفك، عايز أحكيلك حاجة!

استغل حب استطلاعي، كان استغلاله لي بشعًا، كنت دائمًا مستهدفة منه، وكان يصل إلى هدفه بطريقته الخاصة!!

وقتها كنت في حاجة لمعرفة ما يريد أن يحكي، وأيضًا في حاجة إلى أمانه ودفئه، فسمحت له بمقابلتي، على أن يتناول معنا الغذاء، وألا يخبر أحدًا عن انفصالنا، وعندما شعرت أنه يرفض خداعهم أو كما ظن أنها خدعة، رحت أتحايل عليه قائلة:

– عشان خاطري بلاش حد من عندك أو من عندي يعرف، إحنا يمكن نكون مانفصلناش كليًّا!!

رد بعقلانية ممتزجة بسخرية:

– والله؟! هو في انفصال جزئي؟!

قطعت طريقته الساذجة وقلت:

– على ميعادنا بكرة، تصبح على خير.

تمتم بصوت حزين:

– إنتِ الخير اللي باتمناه!

– محدش عارف الخير فين، سلام.

أغلقت الهاتف وانهيت اليوم..

في الصباح تسللت آشعة الشمس الذهبية إلى حجرتي من بين الستائر، قمت أزيح الستائر، وأرحب بيوم جديد..

وقفت في الشرفة، أتأمل ذلك الطير، الذي يزعم أنه حر!!

كيف أن هذا الطير حر وهو مازال مقيد بالغلاف الجوي؟!

ليس هناك حرية مطلقة في أي شيء، من يحلم بها فهو يحلم بسراب، حتى حرية الكتابة، لم يمتلكها قلم شخص يومًا!!

خرجت من حجرتي، وجدت أمي في الصالة قلت لها قبل أن تستجوبني عن أمس:

– صباح الجمال، إيه القمر ده؟ ألا الشمس طالعة النهاردة وكده هيحصل كسوف، قبَّلت يدها ورأسها وأكملت:

– الشمس هتتكسف منك يا قمر!

تضحك ويعلو ضحكاتها مقولة:

– يا بكَّاشة.

صوت جرس الباب، فتحت، وجدت أبي:

– صباح الخير يا صافي.

– إيه، فينك من إمبارح؟

كان سؤالي مجرد سؤالٍ عاديٍّ، مثل اللهفة العادية، والشوق العادي، والحب العادي، الذي اعتدت عليه، هذا السؤال ليس أكثر من تحية نلقيها على من نقابل!

تعودنا أن أبي، يغيب عن المنزل أيامًا، وعندما نسأله عن سبب غيابه،

تكون الإجابة دائمًا موحدة أو قُل مرتب لها:

– هاكون فين يعني؟ غير في الشغل!

لا أعلم هل أنا أظلمه في كل تصرفاته البيِّنة؟ أم هو يستحق هذه الأحكام القاسية؟ لا أعلم لماذا أتردد دائمًا في الأحكام على الأشخاص؟ ربما لأنني أشعر بالذنب إن أظهرت جانب الشر منهم وكأنني أنا الشريرة!! أصبحت قاسية، ومتمردة وأتحايل.. بدأت في التغيير الأسوأ بالفعل، ويبدو أنني سأستمر في هذا التغيير!!

جلس أبي لأول مرة معنا على الطاولة لتناول الإفطار، أثناء ذلك تجاهلت نظرات ملك، وقلت:

– آه صحيح لؤي جاي يتغدى معانا النهاردة.

لم ينطق أحد، يبدو أنهم انشغلوا بالطعام!

في المطبخ، وبينما أقوم بتجهيز الغذاء قالت ملك مُعلنة تفاوضها في المصالحة:

– صافي ممكن آخد رأيك في حاجة؟

سمحت لها بذلك وقبلت المصالحة:

– آه طبعا يا ملوكة.

وضعت يداي على كتفيها وقلت مبتسمة:

– إنتِ بنتي اللي مخلفتهاش.

– قصدك اللي مربتيهاش.

قهقهنا معًا، لكنها قالت:

– طب آخر السهرة بقى، ندردش براحتنا!

هززت رأسي بالإيجاب والموافقة وأخذت تجهز معي الغذاء..

بعد حوالي ساعتين، دق جرس الباب، كان الغداء جاهزًا.

وكانت ملك تُعد السفرة، كنت أيضًا جاهزة، فأحببت أن أبدو مختلفة هذه المرة، النساء يحببن أن يظهرن جميلات ومتأنقات، حتى أمام الأشخاص الذين لا يعنيهن!!

فتحت الباب لأجد لؤي واقفًا، يحمل باقة من الورود، قبل أن يقدمها لي مددت يدي لأسلم عليه، فقبلها ونظر إليَّ قائلًا:

– إيه الجمال ده؟

رحبت به وبجملته بابتسامة لم تنكشف منها أسناني بعد، نظر إلى فستاني الأرجواني، وتعالت نظراته إلى رقبتي التي التف حولها عُقد من اللؤلؤ أهداه لي سابقًا، أذكر ذلك اليوم، كان بعد خطبتنا بشهر، بعد عودته من ألمانيا، قدمه لي على سبيل الإغراء بفوائد السفر!!

نظر أيضًا إلى حذائي العالي الذي يشبه حذاء الراقصات، لم يعتد لؤي أن يراني بحذاء مثل هذا، لا بدَّ أنه قد أعجبه تصفيف شعري لأنه قال:

– من غير حجاب أجمل!!

– ليه إنتَ أول مرة تشوفني بشعري؟!

– حاسس كدة!

وعلى مائدة الغداء قالت أمي:

– هاتروحي مع جوزك النهاردة يا صافي؟

– يومين كده يا ماما.

فتح أبي باب حجرته التي تقع في مقدمة الصالة على اليمين، فوجد لؤي وقال مُرحِّبًا به:

– إزيك يا بني، عامل إيه؟

– الله يسلمك يا عمي.

وهمَّ أن يقف ولكن..

– والله ما إنتَ قايم، أنا نازل عندي شغل.

حينها قالت ملك:

– إيه يا لؤي؟ مستغني عن مراتك؟!

– لأ، سايبها براحتها!!

نظرتُ إلى ملك أن تصمت، وكنت أتمنى أن أقول لها: اخرسي، أومأت برأسها تعني أنها لن تزيد حرفًا آخر، بعدما انتهينا من الغداء طلب مني لؤي أن أخرج معه، كان منزل أسرتي يطل على حديقة عامة، فطلبت منه أن ينتظرني بعض الوقت، حتى أرتدي الحجاب دخلت حجرتي، كانت ساكنة كعادتها وبينما أرتدي الطرحة، أزعج سكونها صوت الهاتف، ضغطتُ على زر القفل، ليدق مرة أخرى، يبدو أنه شخص مزعج حقًّا، برتابة أجبت:

– ألو..

أسمع صوته الذي مازال يربكني:

– عاملة إيه يا صافي؟!

– الحمد لله، جبت رقمي منين؟!

– متضايقة إني طلبتك؟!

– لأ خالص.

– من دكتور سليم.

هل أعطيته حقًّا للدكتور سليم؟! لم أسأله ولم أعاود السؤال لنفسي، لكني قلت:

– مفاتيح العربية مع الجرسون.

– أيوة، ما هو إدهالي، أنا عايز أجيبها لك..

– الحي الرابع، مجاورة 12 ب، ده عنواني.

– خلاص هافضي نفسي يوم، وأجيلك إن شاء الله!

كان كامل أشبه بالمرضى النفسيين، يبدو أنه من كثرة تعامله معهم، صار منهم!!

دخلت ملك ورأت التغيرات التي بدت على وجهي فقالت:

– مالك؟! لؤي مستنيكِ بره!

هززت رأسي أعني أني قادمة، حين قال كامل:

– طب روحي شوفي لؤي عايز إيه، سلام.

– استنى، أنا عايزاك، وبحبك.

– وأنا كمان وربي بحبك، لكن ما أقدرش أقرب!!

– ليه؟ ممكن، كل شيء ممكن..

كما اعتاد إزعاجي قال:

– أنا ما أعرفش أقلب حياتي زيك كده، يمكن عشان كده هما شايفينك شخصية مضطربة، ومتسرعة في التغيير، على رأي لؤي لازم نفكر بعقولنا!!

أغلقت الهاتف بدون أن ألفظ بشيء، ثم ارتميت على السرير، جثة أهمدتها كلمات رجل قد أحياها من قبل!!

وأخذت أفكر، هل أنا مريضة حقًّا؟! أم أن كامل هو المريض؟! أم لؤي؟

إن رُويت قصتنا لا بدَّ أن يكون في النهاية شخص ما مريض!!

هل عليَّ أن أعود لرشدي وروتيني؟!

هل عليَّ أن أدفن حبي؟! أم أدفن الإنسانة التي ولدت بداخلي!!

أفكار عشوائية تهبط على رأسي، وصوت ملك يصرخ:

– يا صافي ياللا لؤي مستنيكِ بره بقاله كتير..

أكملت بصوت مستنكر:

– هتخرجي ولا لأ؟!

– لا مش هاخرج، أنا تعبانة وعايزة أنام!

وقتها دخل لؤي وطلب من ملك أن تنتظر بالخارج لبضع دقائق، جلس بجانبي على سرير واحد!! وضع يده على مفرق رأسي، وتحسس شعري لنهايته، وضمني إلى صدره وقال بحنان:

– مالك يا حبيبتي؟ فيكِ إيه؟!

– مش عارفة؟!

– فاكرة يوم ما قولتلك إنك بنتي؟!

– آه فاكرة.

في الحقيقة اشتقت إلى دفئه وحنانه، اشتقت أيضًا إلى كلمة "حبيبتي"، وهي تخرج من بين شفتيه، حاملة معها الصدق النابع من القلب، كم أثق في حبه لي!

احتضنني وأغلق ذراعيه حولي بإحكام وقال:

– احكي لبابا مالك؟ أنا سرك وأمانك مهما حصل!

بدأت كلماته وحنانه الفياض يشعرني بالذنب ثانية، كان يلعب على وتر يعلم جيدًا مدى تأثيره في ألحاني!!

أخذت ألوم نفسي على ما أفعله معه، ووقتها بكيت كثيرًا، وشهقت من البكاء، مسح دمعي ونعى روحي على آلام قد أصابتها، لا أعلم مصدرها ولم أصرح له بها، أو ربما ظننت أنه لا يعرف سبب آلامي، كما لا أعرفها أنا!!

تكلمت معه كثيرًا، لأني وقتها كنت بحاجة لأن أتكلم مع أي شخص، ولا يوجد شخص مثل لؤي أثق به، هناك نظرية تقول: " أفضل علاج للقلق هو التحدث لمن تثق به!".

أخبرته بأشياء كثيرة، لم يكن يتوقعها، أخبرته أنني لم أشعر بحبه يومًا، وأنني لم أشعر معه بإحساس النشوة والإثارة التي يتحاكون عنها، أخبرته أيضًا أنني مازلت أشعر أني مسخرة له، ورهن قراراته، جرحته أكثر مما ينبغي، وأهدرت كرامته ببشاعة، لم أعتد ذلك من قبل!!

كان عليَّ أن أصمت، لكني تكلمت، وقتها تدفق دمعه وقال:

– آسف.. كل ده جواكِ وساكتة؟! أنا فعلا كنت قاسي معاكِ قوي!!

حينما يفعل الشخص أكثر مما يجب عليه، ثم يعتذرعلى أنه لم يؤدِّ

ما عليه، ليجبرك على احترامه، ومن هذا تعلم أن التقصير منك وحدك لا غيرك!!

بدون مراعاة للوقت، ظللنا نتسامر حتى جن الليل، وصلنا إلى بداية جديدة، وهي أن أبتعد عن كامل ولؤي والمهدئات أيضًا!!

وألا أتحمل فوق طاقتي بعد الآن، حتى أتحكم في قراراتي وأفعالي!!

كان حلًّا رائعًا، وبداية موفقة، وأعتقد أن النهاية أيضًا ستكون موفقة فيما بعد، بأمر الله..

ذهب لؤي بعدما اتفقنا على ألا يكلمني، حتى أتصل به أنا، كان الوقت متأخرًا من الليل، فطلبت منه أن يظل معنا للصباح، لكنه رفض..

رأيت في عينيه الحزن، كان في موقف يُشفق عليه منه، نظر إليَّ واتسعت حدقته ثم قال:

– هتوحشيني يا صافي، يا ريت ما تطوليش!

لمح الأسى والحزن والحيرة في عينيَّ، فرحل على أن يعود، أخذت الـ "الآيباد" وكدت أن أفتح حسابي المغلق منذ سنة ونصف تقريبًا، لكني ذهبت إلى مشغل الموسيقى واستمعت إلى أغنية أحبها كثيرًا لفيروز تعلو لحنها بكلمات:

قالي يا نونو

خبيني عندك خبيني دخلك يا نونو

وعصفور طل من الشباك وقالي يا نونو

..... نزلت على خده دمعه وجناحاته

بهدوء استرخيت على السرير، و.....

قلتله جاي من وين قالي من عند الجيران

قلتله خايف من إيه قالي من القفص هربان

قلتله ريشتك فين قالي فرفطها الزماااان

و عصفور.....

دخلت في نوم عميق...

كنت أجلس في حديقة الفيلا، لم يطرأ عليها تغيير، فالأشجار كما هي بروعة لونها الأخضر الداكن، والورود الملونة مازالت تحيط المقاعد.

والأشجار الصغيرة مازالت تستعد للنمو، تكترث الأرضية بالعشب، ومنزل الكلب على يمين الباب الرئيسي لمدخل الفيلا، كان الكلب باسطًا ذراعيه في استسلام، أمتن لمن أدرك أن الوفاء صفة أساسية عند الكلاب، وللأسف ثانوية أو تكاد تكون منعدمة عند الكثير من البشر!!

كنا في صباح عاطر، يملأ رائحة الجو نسيم نقي، كانت الشمس في أبهى صورها، تشع ضوءها وتبعث من دفئها تجاهي فقط، صوت الكناري رائع، ومنظر السماء وهي صافية أشد روعة، كم من المرات التي صرحت فيها أني أعشق الطبيعة، تسحرني بألوانها ورائحتها وأصواتها!!

ولكن من القادم من هناك؟! لم تساعدني آشعة الشمس المنعكسة على عيناي من التحقق من رؤيته..

ولكن كان يتقدم خالد بهرولة ويقول:

– أستاذ عائد وصل يا ست هانم..

عائد!!

عندما اقترب عائد، بعينين زرقاوتين، وشعر بني قاتم، ووجه مستدير، عائد تجسد في هيئة وشكل كامل!!

جلس أمامي دون أن يتحدث، يبدو على وجهه القلق والخوف والحيرة..

ازدادت ملامحه توترًا وحيرة، يصحبها البؤس، يرتسم في عينيه التعب والإرهاق، لا طاقة لي لتحمل رؤية مثل هذه المشاعر، التي مازالت تنطق من بين ملامحه!

كان عليَّ أن أسأله عن هذا، فقلت بشفتين ترتعشتان:

– مالك؟

ليتني لم أنطق يومها، غيوم السماء تهللت إلى الحديقة، وانقلب النهار ليلًا شاحب اللون، وازداد الجو صقيعًا، وعلت البرودة أناملي، وانتفض جسدي من شدة الرياح، وسمعت صوتًا يشبه الرعد:

– انفصال!!

صدى الصوت يعلو، ويتزايد داخل أذني دون توقف..

يشبه جسدي الآن قطعة الثلج، ازداد تجمدًا، لا أشعر بأناملي، توقفت حركة عيناي، أسمع دقات قلبي تتعالى، صوت نبضاتي يعلو ويعلو.. ليس هناك دم يسري في جسدي، توقف النبض عنِّي، أراني الآن وأنا ميِّتة!!!

يسرع عائد ويمسك بيدي، يحاول إفاقتي دون أن يتكلم، يهز جسدي.

صوت رنين الهاتف ينتزعني من موتي، أفتح عيني، ألاحظ دقات قلبي تهدأ شيئًا فشيئًا، للمرة الخامسة يدق جرس الهاتف، أرد بشيء من الوعي:

– ألو..

كان صوتي وقتها يملؤه الرعب، وكانت أحشائي غير موجودة، مازلت أبحث عنها، في الواقع كان الوقت غير مناسب لمحادثة أي شخص ومكالمة غير مناسبة بالمرة.

قلت بشى من العصبية والخوف:

– ألو.. مين معايا؟

حينما يجتمع الخوف والعصبية معًا في المرأة، لا تتوقع ردود فعل معينة.

رد وبكل وقاحة:

– أنا.

قالها بثقة مزعومة أني سأعرف من "أنا"، أحيانا ثقتهم تخذلنا في أنفسنا!!

ف تبًّا للخذلان ولصاحب الخذلان، نعم تبًّا له ومع ذلك انحنيت من جديد ودار ببالي أن يكون كامل، ولكن من أين استمد كل هذة الثقة؟ نظرت إلى شاشة الهاتف، فوجدته رقمًا مجهولًا، ما راق لي أن أسأله:

– كامل؟!

ليثبت أنه ليس هو قال:

– ده سؤال ولا إجابة؟

كان رده يجبرني على الخضوع، ومن غير لؤي يفعل ذلك؟

انسقت لأمري قائلة:

– آسفة، أصل لسة صاحية من النوم.

– من غير أسف، أنا كمان لسة قايم من كابوس!!

أهداني القدر أكثر مما أتمنى فزاد:

– في حاجة لازم أتكلم معاكِ فيها.

لم يخبرني بهذا الشيء ولكن اتفقنا أن نتقابل في الكافيه ذاته، الخامسة مساءً هناك تكلمنا كثيرًا، لكنه لم يصرح بما قاله أمس، ظل يهرب من أن يقول، ولكن لاشك أني قد مضيت وقتًا ممتعًا حقًّا، أردنا أن نزيح هالة ولؤي من حديثنا، لكنهما كانا يقتحمان علينا خلوتنا بين الحين والآخر!!

حينما حدق في عيني جيدًا خفق قلبي وتعالت نبضاته، أذكر هذا الاحساس ولكن لا أعلم أين؟! ومع من؟! قال بشيء من الجدية:

– ممكن تاخدي هدنة من نفسك، تفكري.. شوفي إنتِ عاوزة إيه بالضبط!

لم ألاحظ أن عرضه كعرض لؤي السابق!! هل يجتمعان بدوني؟!

بادلني السلام بحرارة، وأعطاني مفاتيح السيارة، وطلب مني أن أتصل به حينما أريد، ذهبت إلى البيت، كانت الساعة الحادية عشر تقريبًا، كنت منهكة بين ذكريات تعتصر رأسي، ولم تتضح لي الصورة كاملةبعد، ووجدت أمي تصلي، انتظرتها حتى فرغت وقبلت يدها، وطلبت منها أن تدعو الله أن يريح قلبي وبالي، سألتها عن ملك وأخبرتني أنها نائمة منذ ساعة، دخلت حجرتي وغرقت في النوم. استيقظت في السابعة والنصف صباحًا على صوت جرس الهاتف لأرد: ألو.

كان صوتًا أنثويًّا، ينبع من أنثى عميقة التفاصيل، سرعان ما تذكرت هذا الصوت وقلت:

– مين؟ سارة؟

– لسه فاكراني يا صوفيا!

– وحشتيني أوي ومحتاجة ليكِ أوي!

– خلاص هاجيلك بعد ما أخلص شغل، عند ماما مش كده؟

شككت في أن لؤي قد اتصل بها وأخبرها، ولكن كيف ذلك قلت لها:

– مين قالك؟

–يا بنتي لؤي كان عندي النهاردة، وأخدت رقمك منه، وقال لي كمان إنك كنتِ تعبانة!

انتابني شعور لا أعلم هل هو غيرة أم شك أم اندهاش؟ لكن دعنا نسأل هل يوجد علاقة بين الشك والغيرة والاندهاش؟!

أخبرتني أنها ستأتي اليوم في السادسة مساء، وقلت لها أني سأنتظرها..

انتهت المكالمة وذهبت للاستحمام، كان ينبغي عليَّ أن أسقط كل ذكرياتي التي لا أذكر تفاصيلها، ينبغي عليَّ أن أجد نفسي، وأن أعثر عليها من هذه المتاهة، عندما عدتُ إلى حجرتي، وتذكرت سارة تذكرت معها الكتابة والقراءة، نعم كنا نعشق القراءة.

سارة صديقتي من الجامعة، درست معي في جامعة الأندلس كلية الصحافة والإعلام، وطبعت لها رواية "ألف يوم ودقيقة" كانت رواية مشهورة جدًّا، لم يعلم أحد حتى الآن أني مؤلفتها الحقيقية، بعدما رفض لؤي أن أعمل، ورفض أن أكتب؛ حتى لا يكون لي معينًا كما قال، وجدت أنها رواية تستحق النشر ولا بدَّ أن تنشر، فأهديتها لسارة التي رفضت الفكرة في البداية، ثم قبلت بعد ذلك.

تعمل سارة في جريدة "الحياة" التي تمنيت العمل بها يومًا، وانقطع الاتصال بيننا منذ سنة تقريبًا..، منذ أن سافرت وانشغلت عني لم أسمع صوتها. أسعدني اتصالها وستسعدني أيضا رؤيتها.. في الخامسة والنصف فتحت الباب لأجد سارة، كما هي منبع للجمال والرقة، جلست بعض الوقت مع أمي وملك، ثم استأذنتهما ودخلت إليَّ حجرتي وبينما كانت تشرب العصير قالت:

– وحشاني بغباءاااااااء، فينك يا صوفيا؟

– مش عارفة أنا تعبانة قوي يا سارة.

– إنتِ اتغيرتي يا بنتي، تسريحة شعرك ولبسك حتى لهجتك!!

نظرت بعيدًا ووضعت يدي على جبهتي وقلت في أسى:

– حتى اللي جوايا اتغير.

لم تفهم كلماتي، وفتحت حقيبتها لتخرج ألبوم الصور، كانت أول صورة لنا سويًّا وكان بيننا لؤي يضحك بعيناه قبل فمه.

كنت أضحك أنا أيضًا، ضحكةً أفتقدها الآن ببراءتها وصفائها، كان لؤي يقف بجانبي ينشد السعادة كأنه امتلك الكون بأسره.

تأملت الصورة جيدًا، وتذكرت حديثها، ولكن دار في خيالي أن الصورة كان بداخلها كامل!

فلماذا اختفى من الصورة؟! وحدها الصور التي ربما تعيد لك الذكريات، ولا تخدعك في التفاصيل، فحاول وقتها أن تكون صادقًا في إحساسك، حتى لا يحدث غموض بين الصورة والذاكرة، إن كانت مشاعرك صادقة ستبعث الذكرى من جديد، وتبعث بعد موت نشوتها.

قالت سارة بندم:

– شوفي في تالتة جامعة كنتِ بتحبي لؤي إزاي؟

– تفتكري كان حب؟!

– وبعدين إيه كنت دي؟ هو لؤي كان جاي عشان كده؟

– لأ طبعًا، ما تظلمهوش ده كان بيعمل إعلانات للبنك.

شككت في صدق كلامها، وهذا لم يحدث من قبل، ولكني الآن أشك في كل شيء حتى في نفسي.

وضعت الكوب من يدها وقالت:

– هو في إيه بقى؟ في إيه؟ صافي لخصي واحكي كل حاجة بالتفصيل..

– أنا أصلًا نفسي أوصل للتفاصيل.

بدهاء حاولت أن أبدل الحديث عني إلى الحديث عن سفرها.

أخبرتني أنها قد حصلت على الكثير من الأموال والشهرة معًا، وصارت صحفية مشهورة سواء في مصر أو في الخارج، وأخبرتني أيضًا أن القدر حقق لها برحمة من الله ما تمنت، وأنها وجدت شريك حياتها المناسب التي تمنت مثله.

لخصت لي أحداث حياتها منذ عام مضى، سألتني عما حدث لي وعن ذهابي إلى المستشفى، لكني لم أصدقها القول في أي شيء، ورحت أتهرب منها، لكن السؤال الأخير والأهم الذي وجهته لي وهي تستعد للرحيل.

– إنتِ بتتهربي من الأسئلة ليه؟ عشان حاسة إنك بتعملي حاجة غلط، حاسة إن الإجابة صعبة.

ذهبت وطلبت مني أن أزورها في الجريدة، كان يومًا رائعًا حقًّا، كنت في حاجة إلى مثل هذا اليوم، في حاجة إلى العودة إلى الذكريات، وعودة أشخاص قد صنعوا معنا الكثير من الذكريات، ثم ذهبوا، وتركوا ذكرياتهم التي مازالت محفورة بداخلنا، حينما تجد مكان شيء طُبعت معالمه فيه، ولكن لا تتذكر أين وضعت هذا الشيء وما هو الشيء؟

لن أتحدث عن لؤي وكامل كثيرًا، لكن سارة قضت معظم الوقت في الحديث عن شريكها الذي يُدعى أسعد.

تقول أنه أسعدها كثيرًا، عندما تتكلم الفتاة أكثر الوقت عن شخص معين، ولا تتكلم عن حياتها، فاعلم أن هذا الشخص يمثل لها الحياة.

عندما غادرت سارة كانت الساعة الواحدة صباحًا، وفجأة يعلو صوت ملك وهي تصيح، خرجت من حجرتي مسرعة، ودخلت عليها وقبل أن أتكلم وجدتها تصرخ:

– يعني إيه تسافر تاني؟ إنتَ إنسان أناني منك لله..

ألقت الهاتف على الأرض، وارتمت على السرير باكيةً منهارة..

لا بدَّ أنها تعاني من مشكلة صعبة، فملك عكسي تمامًا، فهي كتومة وقوية، لا تواجه المشاكل باندفاع هكذا.. ربما طفح بها الكيل، لكن ما الذي دفعها إلى ذلك؟!

جذبتها نحو حضني وربتُّ عليها قائلة:

– اهدي يا حبيبتي مالك؟

لم ترد وبكت، ضغطت عليها لتتكلم ولكن دون جدوى، حتى قلت لها:

– ملك أنا مش مستحملة أشوفك كده، ممكن تتكلمي؟

تنهدت تنهيدة طويلة ثم قالت:

– عايز يسافر كل ما نقرب يسافر، بقالي أربع سنين كل أجازة أطلب منه يتقدملي يقوللي أنا مسافر.

– يبقى مش بيحبك!

– المشكلة إني متاكدة أنه بيحبني.

لم أسالها من هو؟ أو متى التقت به؟ وأين؟ ولكني جاوبتها بما يتناسب مع شخصيتها القوية فقلت:

– خلاص سيبيه، اللي يتعبك بلاش منه.

– بحبه يا صافي.

وقتها أيقنت أني لم أحب لؤي يومًا، فما أجمل أن تمتلك شخصية قوية، ومع ذلك تنحني من أجل من تحب، فالحب أن تخضع وأنت قوي لا أن تُهان وأنت ضعيف.

كنت ضعيفة دائمًا ولم يقويني الحب كما ظننت، قسمًا لأعيدن تركيب شخصيتي فيما بعد.

أشعر الآن بكلماتها الواهنة بحبه، وكدت أبكي شوقًا للحب، الحب الذى يحبه كل منَّا، وربما لا يحب الآخر الحب الذي يقع ضحية لأفكارنا وأوهامنا، الحب الذي يشبهني تمامًا.

التقطت الهاتف من على الأرض واتصلت بآخر رقم وكان مسجلًا بـ "7Yaty" وقتها ظننت أن ملك ستمانع، لكنها لم تبدِ أي ممانعة، وفوجئت بصوته يتسلل إلى أذناي:

– أيوه يا هانم عايزة إيه؟

عندما قلت له أني أختها ارتبك، وشعرت أنه قد تعرف على صوتي، فتعالت أنفاسه وقال:

– أهلا بحضرتك.

– بتحب ملك؟

– هي مجنونة وفاكرة إن الجواز لعبة، أنا هاتجوزها بس أنا دلوقتي مش مؤهل.

أيقنت أنه يحاول أن يحبها ليس إلا، وأن هناك مانع يحول بينها وبين قلبه، طلبت منه أن ألتقي به فوافق بعد أن قلت:

– ممكن أشوفك؟

من عباقر الكلمات كلمة "ممكن"، تجعل من أمامك يشعر بأن القرار بيده.

أجابني:

– طبعا ممكن بس هديها على ما أكلمها تاني.

– تمام هاشوفك بكرة عندنا في البيت الساعة أربعة العصر.

قال بدون أن يهتم لكلماته:

– خلاص اتفقنا أنا عارف البيت، أنا مع ملك بقالي أربع سنين، وبوصلها لغاية البيت.

لم يقل أنا أحب ملك من أربع سنوات، لكنه قال معها، ليس كل ما معنا لنا وليس كل ما لنا معنا، هناك الكثير من الحقوق الساقطة لنا في الحياة،

ولم نبحث عنها يومًا أو كما يقولون "الحق يأخذ ولا يعطى" سأبدأ في أخذ كافة حقوقي من اليوم.

أغلقنا الهاتف على موعدنا، كانت ملك قد هدأت بعض الشيء، لكني لاحظت علامات القلق التي ظهرت على وجهها عندما أخبرتها أنه سيأتى غدًا، فطمأنتها بقدر المستطاع، وأخذتها في حضني، ونمنا سويًا، وتقاسمنا الأحلام معًا، وكان لكل منا أمل مع هذه الدنيا غدًا..

استيقظت ويد ملك مازالت حول عنقي، لم أتحرك حتى لا تقلق، فقد بذلتُ بالأمس مجهودًا كبيرًا لتهدأتها، تأملت حجرة ملك تبدو جميلة وجذابة مثلها، كان معلقًا على إحدى حوائطها "عود"، يليه يسارًا "كمنجة" تحتها "دُف"، بجانب رسومات كثيرة تملأ الجدار، تعبر عن كثير من الآلات الموسيقية التي أجهل اسمها.

تحب ملك الموسيقى، كانت تتمنى أن تنتمي إلى فرقة موسيقية، لكن أبي لم يوافق، ولم تشجعها أمي.

نظرت إلى المكتب الذي ترتسم عليه ملامح العبث، أعجبتني باقة من الورود المجففة، موضوعة بداخل زهرية خضراء، صممت من أحجار فرعونية على ماأعتقد، وبجانب هذه الزهرية بعض الكتب الغير مرتبة، وبعض مذكرات الفيزياء المبعثرة، استيقظت ملك وابتسمت لي قائلة:

– إنتِ نمتي معايا إمبارح؟

– آه ياحبيبتي، وبعدين ما قلتيليش هو بيشتغل إيه؟ ولا اسمه إيه؟

فردت ذراعها وتثاءبت وقالت مبتسمة:

– عدعودي معيد عندي في هندسة، شوفته أول محاضرة في أول سنة، وحبيته في أول دقيقة شفته فيها، كان معقد على ما أظن، بس أنا عملت

الواجب، وبقى بيعشقني.

كانت أمي تقول دائمًا: "تبات نار تصبح رماد" هل ملك كذلك؟

أمس ضحكت وقلت بعدما ضممتها إليَّ:

– إن شاء الله كل حاجة هاتتحل النهاردة.

– أيوة مش هيسافر، غير لما نتجوز، أنا ماقدرش ابقى هنا وهو في بلد تانية.

– إن شاء الله.. لكن الغريب إنك ماكلمتنيش عنه قبل كده.

أهملت ملك سؤالي بسؤال آخر كان عليَّ إهماله أيضًا فقالت:

– آه صحيح ياصوفيا، إنتِ هاتروحي البيت إمتى؟

رحمنا القدر بطرق أمي على الباب دخلت بكرسيها قائلة:

– إيه يا بنات مش هاتفطروا ولا إيه؟

قالت ملك أنها ستذهب للاستحمام أولًا قبل تناول الإفطار، أما أنا فذهبت مع أمي لتجهيز الإفطار والتمهيد للإعلان عن الضيف المجهول.

أخبرتها أن هناك شاب سيحضر عصر اليوم ليتقدم لخطبة ملك، قابلت الموضوع برفق، وقالت أنه لا يصح أن يأتي في غياب أبي، بعد عناء طويل لإقناعها وافقت على مضض.

في الخامسة إلا الربع تقريبًا دق جرس الباب، طلبت من ملك أن تدخل حجرتها ولا تظهر أمامه، كذلك طلبت من أمي أيضًا أن تجلس صامتة؛ حتى يتكلم هو بكل ماعنده.

أثناء ذهابي لفتح الباب انتابني إحساس لم أعرفه بعد، وعندما فتحت

الباب تفاجئنا معًا، تبادلنا الذهول بالتناوب، وضع وجهه إلى أسفل ونظر إلى الأرض، بينما أنا مازلت أحملق فيه، وأحاول أن أتذكر تفاصيل الماضي.

نادت أمي وأيقظتني من غفلتي، كان يحمل باقة من الورود، وعلبة شيكولاته.

بالرغم من أن ملامحه اختلفت قليلًا، إلا أنه مازال جميلًا ومهندمًا، أطال شعره الأسود قليلًا، وظهرت تحت شفته السفلى "حسنة" منحته جمالًا أكثر مما هو فيه، سحب نظراته من الأرض وحدَّق في عيني قائلًا:

– هنقف على الباب كده؟!

دخل ودخلت وراءه، جلس وجلست بجواره، تحكمت في ذهولي، وأيقظت غفلتي، وأخذت شهيقًا طويلًا ثم قلت:

– إزيك يا عائد أخبارك إيه؟

رفع حاجبيه وظهر أكثر خضوعًا وقال بصوت مرتجف قليلًا:

– تمام يا صافي، مبسوط قوي إني شوفتك، من يوم ما سبتوا الفيوم وأنا باسأل عليكِ وماعرفتش أوصلك..

أبعد نظره ووجد صورتي على الحائط، ظل يحملق فيها بدون أن يتكلم ثم قال:

– إنتِ بتفتحي الفيس؟

بالكاد أخرجت حرفين:

– لا.

وقعت عيناه على عيني ثانيةً، واتسعت حدقة عينيه، وقال:

– لسه جميلة وبريئة زى ما إنتِ يا صافي.

تعجبت أمي مما تسمعه فقالت:

– إنت تعرف صافي؟!

ارتبك بعض الشيء وقال:

– أنا كنت زميلها في الثانوي يا ماما، مش فاكراني؟

قالت أمي بندم وشيء من الحسرة:

– والله يا بني من يوم ماسيبنا الفيوم، وإحنا نسينا الناس كلها.

ثم استأذنت وحركت كرسيها وخرجت.

ابتسم عائد وقال:

– إيه يا صافي إحنا هانسكت ولا إيه؟

كان ينبغي عليَّ أن أتكلم وألا أبت في أسئلة ملأت خاطري، لكن كانت لدي رغبة جامحة في الاستفسار عن سبب اختفائه، وهل أنا أحببته؟ لكنه قد أجاب على ذلك بأنه عندما رحلت من الفيوم غبت عن الماضي، وغابت معي الذكريات، والحق يقال أن هذا قد حدث.

كنت أود أن أتذكر شيئًا من بقايا ذكريات الفيوم، لكني لم أتذكر إلا أن هناك ذكريات مؤلمة أعاني منها، ولا أعلم ما هي تحديدًا.

بعدما تكاثرت الأفكار بداخلي، وتعالت نبضات قلبي، كان يجب علي أن أنتزع نفسي من هذه النوبة، ولو الآن على الأقل أخذت نفسًا عميقًا وقلت:

– أنا كمان مبسوطة إني شوفتك، نفسي أفرح بيك أنت وملك بقى..

كانت جملتي هذه إشارة إلى أن ينتبه إلى الموضوع الذي قدم من أجله، فهمَّ أن يقول شيئًا، فقاطعته أمي بدخولها وهي تحمل بعض الحلوى في طبق وضعته وقالت:

– اتفضل يا بني عمايل ملك..

خرجت أمي ونظرنا إلى خروجها سويًّا؛ لأننا ننتظر أن نفكر في شيء نقوله.

تناول شيئًا من الحلوى وقال:

– الحلويات دي جميلة زي ملك.

– صافي أنا عايز أسافر الأول.

بعد أن خرج من فمه اسم ملك ما لبث أن قال صافي!! ما هذا الذي أقوله؟ بعد أن احتدت ملامحي وضعت قدمي على الأخرى ونظرت أعلى جبهته قائلة:

– ملك مش هاتستنى أكتر من كده.

– لسه ما شطبتش الشقة.

– أخطبها، وبعدين سافر سنة وارجع إتجوزها.

– حاضر.

سكت برهة ثم قال:

– ممكن أشوفها؟ والنعمة وحشتني.

– لسة بتحلف بالنعمة؟ مش قلت لك احلف بالله.

رد عليَّ ردًّا أربكني كثيرًا، ردًّا لا بدَّ أن يكون عابرًا، ينبغي ألا أفكر فيه..

قال:

– إنتِ لسه أجمل نعمة يا صافي، طول عمري أحلف بيكِ لملك، إنتِ النعمة اللي باحلف بيها.

رأى الدموع تنسكب من عيناي، وظن أنه حنين للماضي، لكن في الحقيقة كنت أبكِ لأنني أشعر بما لا أعلم، كنت أشعر أن هناك شيء يربطني بهذا الشخص، لكني لا أذكر أي شيء.

حينما تشعر بالحنين إلى شخص لا تعرف عنه شيئًا سوى أنه كان يومًا في حياتك.

قال بشيء من الشوق وهو يفتح ورقة التقطها من محفظته:

– الورقة دي مش بتتشال من محفظتي، ولا يوم نمت من غير ما أقرأها، فاكراها؟

هززت رأسي بالسلب والحيرة معًا، رأى الدموع لازالت تتلألأ في عيني، ففتحتها ليقرأ لي ما فيها:

–إنتِ سألتيني وقلتيلي قبل كده وإحنا في أولى ثانوي إنتَ بتحبني ليه؟ وقتها ماعرفتش أجاوب، فقلت لك ماعرفش.

– أنا دلوقت أكتر واحد أعرف أجاوبك على السؤال ده.

سكت برهة ثم نظر إليَّ وقال:

– أنا مش هاقرأ.. أنا هاسمعك اللي كتبتيه: "بحبك عشان معاك كل حاجة مختلفة، بحبك عشان كل مرة باشوفك فيها بأحس نفس الإحساس بتاع أول مرة، نفس دقة القلب وقبضة الروح، بحبك عشان لسه لما باشوفك برجع أعيط لماما زي العيال الصغيرة، وهي بتبقى متأكدة أنا باعيط ليه؟

بحبك عشان كل ما يتقدم لي حد وأنا أرفض، بابا يقوللي إنسيه وعيشي بعدين، بحبك عشان لسه مشاعري ماتغيرتش، وكل حاجة في قلبي ليك ماتبدلتش، بحبك عشان لسه بتعمل جوايا دوشة، لما بشوفك دوشة أنا حباها، بس لما بتمشي بتوجعني قوي، بحبك عشان لسه كل بنت تفوقني مشغوفة أنها تشوفك وتعرفك من كل ما عليك.

بحبك عشان أنا لسه عايزة أفضل أحبك مش أحب غيرك، بحبك عشان لسه عندي أمل، مش عارفة أمل في إيه، لكن حبك في ذاته أمل، بحبك لأن فيك كل حاجة، شامل يعني حتى فيك الشيء وضده، بحبك عشان شمولك يستوعب كل مكان وكل زمان توجد فيه، يستوعب كمان أي بنت بل كل بنت، بحبك عشان كل ما أقرب من حد تاني بحس بجنون حبي ليك فيبعد!

بحبك عشان لسه مش عارفه أعمل قلبي مقبرة وأدفن فيها حبك، بحبك عشان باتمنى تعيش معايا كل لحظة فرحة أو نجاح بتعدي عليَّ ومع ذلك مش بلاقيك، بحبك عشان باحس إني عاقلة وكبيرة مع الناس كلها، ومعاك ببقى طفلة وساذجة، بحبك عشان لسه بفضل ماسكة الصفحة ساعة مش باقرأ والله، لكن خيالي سارح معاك، بحبك عشان لسه مش عارفة أسكت وماقولش إني بحبك، مشاعري أكبر من إني أحتفظ بيها ومقلهاش، بحبك عشان لسه باكتب لك وعنك وناس كتير بتقرأ وإنت مش بتقرأ، بحبك عشان لسة شايفة فيك ملامح الراجل المثالي أو لسة شايفة فيك الدنيا، بحبك عشان لسة شايفاك أجمل دافع بيدفعني أبقى شيء يذكر، أنا فعلًا نفسي ابقى حاجة عشان تبقى فخور بيا، وتشاور عليَّ وتقول دي كانت ملهوفة عليَّ في يوم من الأيام، بحبك عشان نفسي أعملك حاجة تفرحك من غير ما تعرف إني سبب فيها، بحبك عشان لسه بشوف أنوثتى بيك وبس، بحبك عشان عارفه إن نوبات الخيال من مشاكل المراهقة، ومع ذلك لسه بروح فيها ومستمتعة بيها ومش عاوزة أعالج المشكلة دي، بحبك

عشان لسه خايفة تروح مني مع إنك روحت بعيد عني، بحبك عشان لسه بالتمسلك ألف عذر وبشوفك جميل ومش عاوزة أشوفك غير كده، بحبك عشان باسامحك في اللي بتعمله فيا وبدعي ربنا يسامحك على نواياك، بحبك لأنك لم تبادلني المشاعر، ومع ذلك لسة جوايا ليك مشاعر مش بتنتهي، بحبك عشان لسة مافكرتش في كلامي وأنا باكتب وبارتجل حبك من قلبي، بحبك عشان لسة مابخلصش صلاة إلا لما ادعيلك، وكأني لو نسيت ادعيلك صلاتي تبقى باطلة، بحبك عشان لسه لما باخاف عليك باقول بيني وبين نفسي استودعتك الله، بحبك عشان لسه باثق فيك مع إني خنت ثقتي في الوصول لقلبك، بحبك عشان لسه عايشة وهاعيش على حبك، حبك مش ذكريات وبس، بحبك لأن مع الرغم إن المواقف اللي بيننا كانت قليلة، لكني حاسة إني اتولدت على إيدك، بحبك عشان في حاجات كتيرة لسه حسَاها، ومع ذلك مش عارفة أقولها أو أترجمها على ورق، بحبك عشان مهما كتبت مش هاوفي حقك ومش هاقدر أوصل لك ولا ليهم كمية حبي اللي بلاكم، بحبك عشان مش هأحاول أحب غيرك، بحبك عشان أي شخص حاول يقرب مني انجرح من جرحي منك، بحبك عشان متأكدة إني هافضل أحبك، بحبك أكيد لو فضلت أكتب تفاصيل إجابة بتحبيني ليه؟ مش هاخلص فمن فضلكما تسألنيش أسئلة ليها عندى جواب مابينتهيش".

أطبق عائد الورقة وأطبقت أنا عيناي؛ لكي أذكر أي شيء من هذا، لكني لم أستطع. بدا على وجهه حمرةً لا أعرف هل كانت حمرة الخجل أم الحب؟

نظر عائد في ساعة يده وقال:

– الوقت جري مننا وعدى حوالي ساعة من غير ما نتكلم في موضوع السفر.

– عائد.. ملك بتحبك.

تمهلت قليلًا ثم أكملت:

– إنتَ كمان بتحبها ولازم تخطبها قبل ما تسافر.

قبل أن يقول شيئًا سمعت صوت ملك تناديني ذهبت إلى حجرتها وهناك قالت:

– كل ده بتقولوا ايه؟ أنا عاوزة أشوفه والنبي يا صوفيا.

ضحكت لتغيرها المفاجيء مع أنها أبدت عدم الاهتمام بمقابلته أمس، لكن على كل حال سمحت لها أن تخرج لتجلس معه بعض الوقت.

أمسكتها من يدها ودخلت عليه قائلة:

– عروستك أهه أوعى تزعلها أبدًا.

لا أعلم هل تجاهل أن يخبرها أني كنت محبوبته الافتراضية، أم أنه حكى عني بدون أن يعرفني لها.

احتضنها وهمست إليه:

– بحبك يا جزمة.

ضحك عائد وجلس بجوارها، ينشدان الفرحة.

تذكرت وقتها فرحتي أنا ولؤي فرحة مزيفة، نتمناها لنفرح ويفرح من حولنا..

في صباح يوم جديد استيقظت فيه سعيدة، لا أعلم لسعادتي سببًا، لكن على أي حال اتصلت بسارة وأخبرتها أني سأذهب إليها في العاشرة تقريبًا، كان هذا اليوم هو أول يوم اتخذ فيه قرارًا، وكان القرار هو خلع الحجاب،

ارتديت بنطالًا ثلجي اللون من الجينز المطاطي لم ألبسه منذ أيام الجامعة، واستعرت من ملك بلوزة من الحرير قرمزية اللون، مرسوم على صدرها فرع من الورد البرونزي، يخرج من البلوزة ليلتف على رقبتي بقيته.

صنعت بعض القصاصات في شعري التي جعلتني أبدو بنت العشرين، لا أعلم سر حبي لتلك الفترة من عمري.. ارتديت أيضًا حذاءً ذا كعبٍ عالٍ كان لملك، لكنها لا تحب هذا النوع من الأحذية، ربما لأن عائد يرفض ذلك.

ناديت على ملك لتضع لي "الميك أب" لأنها بارعة في توزيعه على الوجه ودخلت قائلة:

– واو إيه الجمال ده؟

– حلو بجد؟

– قمر إيه يا بنتي؟ بس لؤي مش هايزعق؟

– يووووووووووه.

– خلاص يا مزة ماتتعصبيش.

قبَّلتها وأخبرتها أني ذاهبة إلى سارة في الجريدة، وطلبت منها أن تخبر أمي عندما تستيقظ من نومها وذهبت.

هناك كانت سارة في انتظاري، لكنني فوجئت بوجود لؤي.

تفاجأ هو أيضًا بخلعي للحجاب، وكانت غيرته عليَّ أكبر من أن يكتمها فصاح في غضب:

– يا نهارك أسود؟!! إنتِ خلعتي الحجاب؟!

– آه.

امتص غضبه بعض الشيء وقال:

– طيب كده ينفع؟

حاول أن يهدأ قليلًا وابتلع غيرته فأضاف:

– عمومًا أنا سعيد إني شوفتك.

حينما لملم غضبه كان عليَّ أن أصنع من أجل ذلك شيئًا فقلت:

– أنا كمان فرحانة أني شوفتك.

دق قلب سارة لحبيبها على الأرجح، لكنها وضعت يدها على رأسي قائلة:

– شوفتي العدد الجديد من المجلة؟ لؤي واخد صفحة كاملة فيها.

نظرت إلى لؤي وقلت له:

– من إمتى وإنتَ بتكتب؟!

– أومال يا بتاعة إعلام إنتِ فاكرة إنك إنتِ اللي بتعرفي تكتبي بس؟

بعدما خرجت من فم لؤي، أعدت التفكير فيها، فاستأذنت منهم وتوجهت إلى رئيس التحرير الذي رحب بي كثيرًا، وكان يعرفني منذ الجامعة، وطلبت منه أن يتوسط لي لدى مدير الجريدة؛ لأعمل بها، طلب مني أن أمهله يومين فقط؛ حتى يرد علي في ذلك، فوافقته وشكرته على ذوقه وذهبت.

دخلت مكتب سارة من جديد، لكني لم أجدها هناك، كان لؤي يجلس على المكتب وكان الجو هادئًا، فمقر الجريدة يطل على النيل، وفي غرفة المكتب نافذة ضخمة مفتوحة تفرد زجاجها للهواء، كان المكتب محاطًا

بألواح زجاجية، مما يجعلك ترى العالم من الخارج، كما أن كل مكتب وضع عليه جهاز كمبيوتر حديث الصنع.

نظر إليَّ لؤي عندما فتحت الباب، وطلب مني أن أدخل، وأغلق الباب خلفي، جلست على كرسي بجانب المكتب، بينما وهو قادم أخذ ورقة من على المكتب كتب فيها "**How about love me?** " وعلقها على أحد الحوائط، أخذت ورقة أخرى ولا أعلم ماذا أكتب فيها، لكني ارتجلت "**I Don't know any thing**"، وعلقتها بجانب ورقته، لكنه سحب ورقة أخرى وكتب عليها "**I Wish help you**" علق ورقته وبادلني ابتسامة جانبية تعني خيبة الأمل ثم خرج، وقفت في النافذة بدون أن أقول له شيئًا قبل رحيله، أدار سيارته ورحل، لكنه قبل أن يرحل نظر لأعلى فأبعدت نظري إلى النيل ورحل، عندما أدرت وجهي وجدت شخصًا متوسط القامة، وبشرته داكنة نوعًا ما، طرق الباب الزجاجي ودخل باسمًا وقال:

– إنتِ صافي صاحبة سارة صح؟

– أيوة أنا لكن إنتَ مين؟

– أنا أسعد خطيب سارة.

– آه تشرفنا، سارة حكتلي عنك كتير، وهي بتحبك قوي.

لمحت الفرحة في عينيه، واعترف أيضًا أنه يعشقها، عندما قدمت سارة اسأذنت منهما، وأخبرت سارة أني نويت أن أكتب روايةً جديدةً، وأحتاج إلى بعض الكتب في فن التأليف الروائي، استغربت سارة لأني طالما عارضتها في قراءة كتب عن فن التأليف، فالتأليف ليس بفن نتعلمه، بل الكتابة للجميع، والموهبة لا تخضع للتعليم، لكني الآن أعترف أن هناك قواعد ينبغي مراعاتها.

أخبرتها بذلك وأضفت:

– سعيدة إني شفتك يا أسعد.

أيضًا بادلت سارة القبلات وغادرت.

كانت الساعة الثانية ظهرًا، ركبت سيارتي وذهبت إلى مطعم على بعد كيلو متر تقريبًا من مقر الجريدة بالقاهرة، دخلت المطعم وكان هادئًا للغاية.

صُممت الطاولة الواحدة لشخصين فقط، وكل طاولة على بعد مترين من الأخرى، اخترت طاولة تقع على اليمين في آخر زاوية للمطعم، كنت الوحيدة التي أجلس بمفردي لا بدَّ أني نسيت أن المطعم مكتوب عليه من الخارج "**For couples**" "**NO Single**" لكني عندما أمعنت النظر في الكرسي المقابل لي لم أجده فارغًا، بل وجدت كامل يجلس أمامي يحدثني وأحدثه يضحك لي وأضحك له، يدق قلبي الآن من أجله، بل يدق قلبي بوجوده، أشعر بالسعادة وابتسم في حين سمعت صراخًا بالمطعم:

– أنت زبالة أصلًا وهي أحقر منك.

– يا بنتي والله هي بتضحك لنفسها وأنا بضحك لك.

– إنت حقير مش عاوزة أشوف وشك تاني.

رحلت الفتاة وتقدم إليَّ هذا الشاب قائلًا:

– عاجبك كده؟ جبتي لي مصيبة.

– أنا؟!

–إنتِ مريضة ولا هبلة؟

– أنا؟!

– لا إنتِ مستفزة بقى.

– أنا؟!

– ما تعصبنيش على أمك..

– أنا.. أنا معملتش حاجة.

قلتها وأدمعت.

الرجل حينما يرق قلبه يكون ملاكًا يا عزيزتي.

جلس على الكرسي المقابل لي وقال:

– آسف بس لقيتك بتضحكي ومبتسمة، فهمت إنك بتبتسميلي.

في الواقع أعجبت برقته، ولكن عندما لمحت نظره يتسلل إلى العقد البرونزي، عجز إدراكي عن تفسير نظرته إلى صدري!!

هل لذلك جلست أيها الأحمق؟ كنت قد قرأت كتابًا للشعراوي قال فيه: "إنَّ النساء إنْ ارتدين الحجاب جميعًا لن يخون رجل إحداهن أبدًا".

أخذت ألف الفرع على رقبتي من جديد، وهو لا يزال يراقب غروب صدري، بعد ذلك اعتذر عن الخطأ الذي صار ثم رحل..

بعدما تناولت الطعام المكون من طبق من الأرز وقطعة دجاج وقليل من البطاطس عدت إلى مقر الجريدة مرة أخرى.. أسفل المقر اتصلت بسارة، وطلبت منها أن تنزل لتأخذ مني الكتب، وعندما حضرت أخبرتها أني ليس بحاجة إلى أن أتعلم كيف أكتب؟ قلت لها رأيي قديمًا أن الكتابة ليست بحاجة للتعلم، وفن الكتابة لا يسعه كتاب، بل لا يسعه خيال كاتب، أخذت مني الكتب وهي في ذهول ودهشة لكثرة تقلب آرائي، وصعدت إلى مكتبها، وذهبت إلى منزلي..

في صباح يوم جديد، جلست على مكتبي، وأخرجت حزمة من الورق، وبدأت في كتابة روايتي.. كتبت فيها:

(جلست أنا وكامل في حديقة منزلنا نتناول الإفطار، كان كامل في غاية تألقه كما هو، رزين وثابت انفعاليًا، كما أنه ينظر إليَّ في اشتياق ومداعبة، كان هو الجمال حينما نشتهيه، بل كان الشهوة حينما تصل إلى ذروتها.. بل كان ذروة اللامنتهى!

طفلنا بجوارنا يلهو ويلعب، طفل جميل يأخذ ملامح أبيه، في براءة طفل اقترب من أبيه قائلًا:

– بابا هو إنتوا ليه سمتوني عائد؟

نظر إليَّ كامل مبتسمًا وأوما برأسه كي أجيبه فقلت:

– عشان مدلول الاسم يا حبيبي، عائد يعني وعد بالعودة.

ضحك كامل وقال:

– آه زي ما ماما بتقول كده، مش عشان كان ليها زميل أيام ثانوي، قرفتني بالحكايات عنه، دي خلتني أغير منه من غير ما أشوفه في الحقيقة!!

وضعت رأسي على صدره، وتحسست شعره بيدي، وحدقت في عيناه الزرقاوتين التي أغرق فيهما وقلت:

– الفضل ليك يا حبيبي، إنتَ اللي عالجتني..).

سمعت صوت ملك تصرخ فأخذت الورقة ومزقتها وألقيتها في سلة القمامة وخرجت إليها، كان صوتها قادم من غرفة أمي، دخلت لأجد أمي ملقاة على الأرض، يبدو أنها قد وقعت من فوق السرير، كانت هامدة لا تتحرك ولا تنطق، اتصلت بالإسعاف سريعًا، وذهبنا إلى "المركز الطبي العالمي" كان

يبعد عن بيتنا بضعة كيلو مترات، بعد فحوصات وآشعة مقطعية أوضحت أنها قد أصيبت بنزيف في المخ، ثم آشعة الرنين مغناطيسى التي بيَّنت أن النزيف في الفص الأيسر المسئول عن الحركة والكلام، وبعدها أجرينا آشعة بالصبغة على شرايين المخ، أخبرنا الطبيب أن هناك تمدد شرياني، ولا بدَّ من إجراء عملية سريعة، لكن بعد امتصاص المخ لجزء من الدم المتراكم به..

في العاشرة مساءً وهو الوقت المحدد لإجراء العملية، وقبل دخولها إلى غرفة العمليات نظرت إليَّ كأنها تودعني، كان صعب علي تخيل أنها تودعني، ابتسمت لها وهززت رأسى أي "لا تقلقي"..

أشعر بأن الحياة ستنتهي صلاحيتها إن حدث لأمي شيء! وجدت لؤي قادم من بعيد، ونظرت مرة أخرى إلى أمي التي ظهرت مستسلمة لمصيرها، ومؤمنة بقدرها.. أغلق الطبيب الغرفة.

وبعد مرور ساعتين بالضبط كانت كل دقيقة منهم تمر ببطء شديد، خرج الدكتور مبتسمًا وأخبرني بأن العملية نجحت وأن كل شيء على ما يرام..

وبعد مرور يومين كانت فيهما شبه غائبة عن الوعي، خرجنا من المستشفى وأمي على ما يرام بفضل من الله، كانت هنا هي المرة الأولى التي أتلذذ فيها بجملة "الله كريم"، لقد كان الله كريمًا معي وأنا التي طالما عصيته، طلبت منه أمي فأعطاني إياها، فاللهم لك الحمد، ولك الشكر يا أكرم الأكرمين..

سافر أبي كعادته فيما يزعم أنها سفرية عمل ضرورية، وتأجلت خطوبة ملك، وتأجلت أيضًا كتابة روايتي؛ لأن ذهني لم يكن حاضرًا بعد توقف كل شيء، إلا ساعة منزلنا لم تتوقف عن عد الوقت، وأصبح كل يوم كأمس، نعم كل يوم يأتي ليذهب..

وبعد مرور شهر تقريبًا كنت أرعى فيه أمي، وكانت أمنيتي أن تتحسن

حالتها وحمدًا لله، فقد تحققت أمنيتي في شفائها، وكانت ملك تعيسة بائسة على أمي وعلى خطبتها المؤجلة.

في هذا الشهر وردت إليَّ بضع اتصالات رسمية من كامل ولؤي، يطمئنان فيها على أمي، وكان عليَّ أن أكتب شيئًا من روايتي..

فكتبت:

(بعدما قامت ملك بإخبار كامل بأن أمي في العمليات أتى مسرعًا، وأخذني بين ذراعيه وهدأ من روعي، وأخبرني أن كل شيء سيكون على ما يرام، وظل عائد يبكي ويصيح تعالي يا "Anna" مش تموتي.

بعدما خرجت أمي من العمليات، انتظرنا ميعاد الزيارة، لكن الطبيب تقدم وأخبرنا بأن الله توفاها!!

أتذكر صوت شهقتي، ووجع قلبي يومها، ومع ذلك كنت سعيدة، لأنها سترتاح من عالمنا، كانت أمي رائعة في إيمانها، وصابرة على بلائها، وكنت على يقين قوي بأن الله سيجعل الجنة مثواها، سيذهب بؤسها وسيرفع عنها قهرها، جفت عيناي من الدمع، أذكر ملك وهي بجواري تبكي بهدوء وتحزن بعقل..).

نزعت هذه الورقة ومزقتها أيضًا!!

بعدما مزقت هذه الورقة، أخذت ورقة أخرى كتبت فيها:

(عندما جلست بجوار كامل وهو نائم على السرير، تذكرت مساعدته لي، وتذكرت كلماته: صافي، فوقي، إنتِ لازم تأخدى العلاج "اسكيزوفيرينا " مش مرض سهل وعلاجه مش صعب.

تذكرت أيضًا وقوفه بجانبي؛ ولذلك قررت أن أفاجئه بخبر سار..)، ولكن

ما الخبر؟ لا أعلم!! بعدما تاهت الكلمات من رأسي وتلجلجت الحروف على ورقتى انتزعتها بعصبية ومزقتها.

سمعت صوت طرقعات وإذا بملك تفتح الباب وتقول:

– كامل على التليفون بيقول بيرن عليكِ مغلق.

– آه انا قافلة تليفوني مش عايزة أكلم حد..

– لا أنا قلتله إنك هنا، قومي ردي عليه بقى.

خرجت وتركت الباب مفتوحًا راح نظري إلى سماعة التليفون، فقمت على مضض، ورفعت سماعة التليفون ولم أجد أحد، عاود الاتصال ثانية، رفعت السماعة مرة أخرى وقلت بعنف:

– ألو.

– أزيك يا صافي فونك مقفول ليه؟

– كده.

كانت كلماتي توحى بالبرود ولم أقل أكثر من "الحمد لله"، "شكرا"، "الله يسلمك".

بعد انتهاء المكالمة كانت ملك تقف على باب حجرتها فقلت وأنا أقترب منها:

– مش هارد على حد تاني، ده يبقى لؤي أولى بقى..

لكنها صدمتني بقولها:

– لؤي مين؟!!

وقتها شعرت بأني مريضة حقًّا وأتوهم أشخاصًا!!!

ولكنها سرعان ما أعادتني إلى رشدي وأردفت:

– لؤي مين هو لؤي في دماغك أصلًا؟!!

وخرجت ملك وخرجت أوهامي معها..

دخلت حجرتي وانتزعت ورقة أخرى مع أني لم أركز في شيء، أو يأتي بخاطري فكرة بعينها، لكني كتبت:

(بعدما تناولت الدواء رغمًا عني، كانت حالتي تتقدم إلى الأفضل كانت حياتي هادئة مع كامل وطفلنا عائد، وكنت أتمنى أن تبقى الحياة هادئة هكذا ولكن...!).

بعدما توقفت عن الكتابة لم يكن لدي أحرف أدمجها في كلمات، كانت الأبجدية حمقاء في وصف حالتي، أو في وصف ما أريده، لكن الكتابة نفسها تعيد لنا ترتيب الفكرة، وتعميق الوجدان، وربما توضح شيئًا غير واضح المعالم.

صوت ملك ينادي من جديد، وجدتها في المطبخ مبتسمة، وتقول وقد وضعت البيض فوق الدقيق:

– صافي.. هو احنا بنحط على البغاشة زبدة؟

– آه بعد ما تعجنيها، إنتِ بتعملي بغاشة ليه؟

– عائد بيحبها، قصدي هو ممكن عائد ييجي عندنا النهاردة؟

– إنتِ خلاص قولتيله ولا لسه بتسألي؟

أحمر وجهها، وتوترت قليلًا ثم أشعلت النار وقالت:

– أنا قلت ييجي يتغدى معانا يعني، عشان هو لسه هنا ماسافرش الفيوم..

ضحكت وغمزت لها لأدخل السرور عليها وقلت:

– يعني الحلويات دي لأمك؟ خليه ييجي يا قلبي..

– طب ياللا بقى عشان أجهز كام نوع عصير.

ضحكت وقلت:

– كام نوع؟! طب يا ستي جهزي اللي عايزاه وأنا هاقول لماما إنه جاي يزورها..

بدا على ملامحها السعادة التي أخبرتني كم هي تحب عائد.

لك الله يا ملك في حبك، يقول علي بن أبي طالب: "العشق مرض ليس فيه أجر ولا عوض".

كم أنا سعيدة لأني أدخلت السرور عليها، فما أجمل أن تكون سببًا في إسعاد عاشق.

وحدهم العشاق يعذبون بدون قبور، أو حدود لعذابهم، وحده العشق من تقبل ألمه ووجعه وتتمنى المزيد سواء بإرادتنا أو بغيرها..

حضر عائد على الغذاء أو "عدعودي" كما تلقبه ملك، هو أيضًا يقول لها "ملكتي"،

أشعر الآن أن عائد قد عاش حياته مثلي، لا يعلم لسعادته طريق فأسعد غيره، أو قل أهدى السعادة لمن لا يمتلك السعادة لأنه يعلم وجع فقدها!!

بعدما انتهى من تناول الغذاء جلس في حجرة الاستقبال، وذهبت له ملك حاملة العصائر والحلوى.

لمحتهما من خلف الستار، أو تجسست عليهما، وجدتهما يتبادلان القبلات أو كما رأيت يغتصبان القبلات، في الواقع هممت أن أردعهما، لكني تذكرت كامل وقبلته، لكن أين كانت قبلته هذه؟!

لا بدَّ وأن يكتفيا بهذا القدر؛ لأني أعلم إلى أين تسوقهم بعد ذلك..
دخلت عليهما بعد إحداث شيء من الضجيج يكفي للإعلان عن قدومي، وضع عائد رأسه أرضًا واحمرت وجنتاه خجلًا، وارتبكت ملك وحاولت أن تتحدث، لكنها لم تفلح في نطق شيء..

عندما يتلاقى العاشقان لن يشعرا بالعالم من حولهما، ولكن هل عائد يعشق ملك؟

بعد فترة من الوقت الذي مر ثقيل عليهما، كان الصمت فيه ضيفنا، نظرت إلى عائد قائلة:

– إيه يا عائد إنت ماكلمتش بابا فـ موضوع الخطوبة تاني ليه؟ إيه رأيك نخليه الخميس الجاي؟

– خلاص موافق، أنا بس كنت مستني عشان ماما والظروف.

ابتسمت ملك في خجل ملحوظ وقالت:

– خلاص ماما بقت كويسة.

لا أعلم من أين أتى هذا الخجل؟ وحتى الآن لم تبرد شفتاها من التقبيل!!

غادر عائد بعد أن اتفقنا على أنه سيكلم أبي مرة أخرى.

وقفت ملك تدور وتدور ويعلو صوتها:

– أنا فرحانة فرحانة قوي.

دخلت حجرتي، ونظرت إلى عائد من الشباك، لا أعلم لماذا تقبلت الأمر كما هو؟ ولا أعلم لماذا افترقنا؟ وهل كنت أحبه حقًّا؟

وحتى إن كنت أحبه فهو الآن ليس ملكي، ولا يوجد لدي أي مشاعر

نحوه، فأنا أشعر بحبه لملك جيدًا، وأيضًا ملك تحبه حد الموت.

قبل أن يركب سيارته ألقى نظرة وقعت عليَّ.. فابتسمت ورحل..

بعد دقائق تذكرت مجلة سارة التي يكتب فيها لؤي خواطره، نزلت إلى السوبر ماركت لأشتريها ومعها بعض المسليات..

دخلت حجرة أمي، وجدتها نائمة، ودخلت حجرة ملك وجدتها تتحدث في التليفون، أعتقد مع عائد لأنها لم تنتبه لي..

جلست في حجرتي حائرة ما بين أن أفتح المجلة وأقرأ ما كتب لؤي أو أن أتركها، لكن لماذا هذه الحيرة؟ وأنا قد نزلت واشتريتها!!

فتحتها وبحثت عن لؤي كانت كتاباته من قلب صافي في الصفحة العاشرة على اليمين بعنوان "صافي الحياة" قرأت ما قد كتبه بقلبي قبل أن يترجم بعقلي، في الحقيقة كان رقيقًا في تعبيراته، وصاحب ذوق رفيع في كلماته، يبدو أنه يتجه إلى التغيير حقًّا.

كانت الصفحة التالية له أيضًا، ولكن بعنوان "ما دار بخاطري" أدهشني الكلام في هذه الصفحة أكثر من السابقة؛ لأنه قد كتب في السابقة "في حضرة الحديث عنها يجب أن أصمت طويلًا لأنه لن يوفي حقها كلمات أسردها أو أشعار أرتلها أو قصائد أنتقيها" فالعلاقة بين الكلمات وسموها علاقة غير متكافئة!!

فعذرًا ليس لديَّ إلا بضع كلمات سأدلو بها، ربما تكفي لفتح باب قلبك إلى "أحبك صافي الحياة"

مع أنها كلمات رقيقة، وأحسن في كتابته، وبالتأكيد أحسن لأنها نابعة من قلب طاهر، ومشاعر صادقة، أعلم يا لؤي، أعلم جيدًا أني لك الحياة، أذكر كلماتك التي طالما شعرت بها، دائمًا ما كنت تقول لي: "إنتِ بالنسبة لي

حياة"، ولكنك قد أنهيت حياتك بجهلك يا لؤي، أعلم أنه بغير قصد، لكن لا يفيد ذلك حينما تفقد شخصًا من حياتك، لا يفيد إن كان فقدك عن عمد وكنت تتجاهله، أم أنك فقدته عن سهو.. فالنتيجة واحدة، أعلم أيضًا يا لؤي أنك لن تنجو من الوجع والآلام بدوني، ولذلك خائفة وحائرة في اتخاذ أي قرار؛ خوفًا على نفسي ربما لأني تألمت أحبتني.

مع أن هذه الكلمات أعجبتني كثيرًا، لكن كانت الكلمات الأخرى محل إعجابي الأول.

كتب فيها:

(هذه الأسئلة والأجوبة جاءت في حوار فني لي، وددت أن أعرضها إليكم ربما تفيدكم بعض الشيء..

– ما الحب بالنسبة لك؟ وهل له علاقة بالبكاء؟

– الحب أن تبكي من أجل من بكى من أجلك، ومع ذلك لا يعرف أنك قد بكيت..

– لماذا لم يعرف؟

– لأن مشاعره ربما تكون شفقة على بكائك عليه!

– ولماذا تبكي؟

– لأنه قد بكى من أجلك، أي أن الحب قد أوجعه، ووجع الحب لا بدَّ وأن يصيب كل أطرافه، وإن كان طرف واحد هو الموجع؛ فهي علاقة حب ليست متكافئة، ويجب أن ننسحب من العلاقات غير المتكافئة!!

وأضاف أيضًا:

– إن الحب حتمًا أطرافه ستموت، ولا بدَّ وأن يتركوه بميراث حي، فيقول

الدكتور مصطفى محمود: "الحب قصة جميلة.. الموت مؤلفها، فلا بدَّ من ترك ذكريات يرثها الحب ليبقى بعيدًا حيًّا بعد موتنا.

– ولماذا يؤلف الموت قصص الحب؟

– أجاب على هذا أيضًا الدكتور مصطفى محمود فقال: "لو لم نكن نموت لما شعرنا بالحب، فما الحب إلا هيستريا التشبث والتعلق بالحياة ومحاولة تهريب"، كان محقًّا الدكتور مصطفى محمود، فكثيرٌ ما ضاع الحب بين من امتلكه وعلم أنه معه وله ومن أجله..

لقد انتهى لؤي من كلماته، وانتهيت من بكائي على كلماته، هل لأني أحبه؟ أم لأني أشفق عليه؟!

دقت الساعة العاشرة وأربعين دقيقة، وقفت في ذلك المساء بشرفتي، وجدت الهواء منعشًا فأخذت مقعدًا وجلست عليه، كانت نسمات الهواء تنعشني، كنا على مشارف فصل الشتاء، وكان الهواء منعشًا، ورغم شدة الرياح إلا أنني أحب لفحات الهواء؛ خاصةً في المساء أحبها كثيرًا، تطاير معها شعري ودمعي.

عدت إلى ذكريات ما تمنيت أن أعود إليها يومًا، ذكريات مراهقتي مع عائد، نال عائد أيضًا من اسمه الكثير، لكنه عاد بعد وقت كان كاف لخروجه من حياتي كلها، ودخوله حياة ملك بل هو الآن الحياة لملك.

سبحان ربي، وعجبًا لهذه الصدفة، لو كان عائد يفكر في خطة ليعود إلي ويظهر ثانية، ما وجد أكثر حبكة من هذه الصدفة!

هيا بي لأعود أنا أيضًا من وهم هذه الذكريات، ينبغي علي أن أترك عائد وملك وشأنهما، وعدت نفسي ألا أبت في شأن ذلك الموضوع مرة أخرى، جلست صامتة لوقت طويل يداعب الهواء ملامحي.

استيقظت من نومي في التاسعة من صباح يوم مشمس، كانت هناك رياح تحمل الهواء البارد على الرغم من إشراق الشمس، لكن المدهش هو تساقط بعض القطرات في ظل هذا الإشراق التي رسمت بعض البقع على زجاج النافذة، أثناء متابعتي لهذ المنظر الرائع تذكرت لؤي.

أنا ولؤي والمطر!!

أثناء فترة خطبتنا، قرر لؤي –وكان دائمًا ما يقرر دون الرجوع إليَّ– أن نذهب إلى "دريم بارك" وهناك قرر أيضًا أن نركب قطار الموت كما يسمونه، بعد لحظات من تحرك القطار، تغير الجو وأمطرت السماء بغزارة، وظل المطر يهطل وأنا أصرخ، ويزداد المطر ويعلو معه صراخي.

ولؤي يزداد ندمًا بعدما نزلنا وللعجب أن السماء توقفت عن المطر فقال لؤي:

– إيه ده؟ هي السما كانت بتعيطلك سلف ولا إيه؟ إنتِ تصوتي وهي تعيط، يخرب بيتك فضحتيني..

ضحكنا يومها بعد هذا الصراخ وذلك التأنيب، وأثناء سيرنا أمطرت السماء مطرًا جميلًا، تمنيت وقتها أن أحضن لؤي، لكنه رفض لأنه رأى أننا في مكان عام ولا يجوز، كنت أتمنى أيضًا أن أجري ويجري معي تحت هذه الأمطار، لكنه رفض أيضًا.

لطالما تمنيت أشياء معك يا لؤي لم أحققها، دائمًا ما كنت ترى الناس قبلي، وتشعر بمن حولك قبل أن تشعر بي؛ لا أظن أنني كنت في حساباتك يومًا؛ لأنك تعلم أني معك، ولكن! دارت الدوائر يا لؤي.. والآن أنا في مكانك المناسب، وأنت في مكاني غير المناسب..

كنت أتمنى الكثير، ولم يتحقق لي شيء، حتى القليل لم يتحقق، أعطيتك

الكثير وفعلت من أجلك كل ما تمنيت، لم تفعل من أجلي شيئًا، حتى الآن وأنا أشعر بالذنب تجاهك، أشعر بأنني لم أوفيك حقك، لماذا كل هذه المشاعر؟ من أين يأتي كل هذا الألم؟ لماذا لا تزال في حساباتي؟ تعلم جيدًا أني أهواك، لكن مشاعر مصطنعة، كي لا أجرحك حتى نفسي أخدعها بأن هذه المشاعر ليست مزيفة، صدقت أسطورتي في أنني أحبك، لكنك لم تستعد جيدًا لقراءة هذه الأسطورة، والحفاظ على هذا التراث، أنت من أضعتني يا لؤي فلا تلُم إلا نفسك..

كانت كل هذه الكلمات في خاطري، ووددت أن أكتبها وأرسلها له لأني لن أجرؤ على قولها له علانية، لا أعلم هل لأني أخاف منه؟ أم عليه؟ أعتقد لأني أخاف عليه وأخاف على نفسي أيضًا إذا رأيته يجرح بسببي.

خرجت في الشرفة، ووقفت مستسلمة ولكن، لماذا كامل؟

هل كامل خيال؟ قبل أن تتعمق الأفكار وتهطل إلى ذهني أخذت طريقًا للهروب منذ زمن لم آخذه..

"الفيس بوك" إنه الكائن السحري والمهدئ والمسكن الرائع، الذي ينتشلك من همومك وأفكارك؛ لتسبح نحو هموم وأفكار أخرى، أخطأ من قال إنه عالم خيالي وافتراضي، إنه الواقع بكل أشلائه، بعد أن عانيت في فتح حسابي القديم الذي لم يُفتح منذ عام ونصف تقريبًا، فتحته ووجدت الكثير من الإشعارات والرسائل وطلبات الصداقة.

الفراغ الذي جعلني الآن بين يدي "الفيس بوك" هو الذي جعلني أحتار بين هل أفتح الرسائل؟ أم الإشعارات؟ أم أطَّلع على طلبات الصداقة؟ اللعنة على الفراغ حينما يجعل من الإنسان شيئًا تافهًا!

وبحمد الله قررت أن أفتح الرسائل بعد حيرة شديدة، وجدت بعض

الرسائل من صديقاتي رددت عليهن، ثم وجدت أخرى من مجهول كان اسم حسابه هكذا "مجهول" كتب في رسالته: "اسمك حلو أوي.. صافي التوني.. الله التوني حلو أوي فعلن اسمك حلو زيك يا عسلية"..

ختم رسالته بعد عدة أيام: "آه من حقك متردیش مـ إنتِ الإقبال عليكِ كتير "الناس تحب المعسل يا معسلة".

استفزتني قراءته الخاطئة للاسم، كما أثار غضبي أيضًا كتابة كلمة فعلًا هكذا "فعلن"، وأزعجني "معسل وعسلية" فكتبت إليه أنا اسمي "صافي النوفي" بالنون وبعدين "فعلًا" بتنكتب كده من غير نون، وعمومًا إنتَ مش محترم وأنا مش هارد عليك.

في غضون ثوانٍ كان قد كتب:

"يا دين النبى إنتِ صحتيني بعد موتة، وإيه علاقتك بالنون مالها متمرمطة كده وبعد كل ده مش هتردي إنتِ جان ولا إنسان".

ضحكت ولكني لم أهتم وأرشفت هذه المحادثة، وجدت رسالة أخرى من "صاحب الجلالة والجمال" يقول فيها: "إيه رأيك نجيب تورتة ونحتفل؟" فكتبت إليه "نحتفل بإيه؟" لم يرد..

فأرشفتها هي الأخرى، ثم فتحت رسالة ثالثة يقول صاحبها: "صافي إنتِ منين؟ ليه مبتسأليش؟ صافي أنا لسه بحبك حتى لو اللي بينا مراهقة أنا حابب مراهقتي معاكي! صافي سامحيني لو ضايقتك أنا عارف إني بعدت فجأة بس آسف وعارف إني جرحتك يوم ماقلتلك إنك مجنونة وشايف الحياة غلط صافي أنا بحبك".

ورسالة أخرى بتاريخ 15 سبتمبر عام 2008 فيها:

"صافي أنا هادخل في قصة حب خايف معرفشى أكمل وخايف أظلمها

معايا، دي إنسانة طيبة وبنوتة جميلة فيها منك، والله فيها منك، يمكن حبتها عشان شبهك، مع إنها مش هتبقى زيك أبدًا، عارفة يا صافي أنا لو عليَّ أكتب ليكِ أخباري أول بأول بس والله ما عندى وقت أنا بقيت معيد في جامعة "مصر للعلوم والتكنولوجيا"، يا ترى إنتِ كمان بقيتى إيه؟ عارف إن كان نفسك تبقى إعلامية أو كاتبة مشهورة معلش يا صافي طولت عليكِ كنت حابب أتكلم معاكِ شوية".

كان ختام الرسالة: "بحبك وأتمنى أشوفك".

كانت هذه الرسالة من "مستخدم في فيس بوك" لا شك أنه عائد، أكد لي ذلك عندما تذكرت سؤاله عندما تقابلنا أول مرة في بيتنا، سألني هل مازلت أفتح "الفيس بوك"؟ وسألني أيضًا بعدها هل علاقتي بزوجي طيبة؟ من الواضح أنه حظرني حتى لا أعرف أنه هو، لكنه كان قليل الحيلة في ذلك.

ولكن قبل أن ترتسم البسمة على شفتاي، دخلت ملك وما أن رأيتها حتى فزعت وظهر على ملامحي الفزع، نظرت إلى الكمبيوتر:

– فاتحة الفيس بوك يا مزة وبتكلمى مين؟ وأنا أقول المزة مختفية ليه؟ بس إنتِ بقالك كثير يا صوفيا مافتحتيش، ده أنا قلت الحساب اتقفل ولا نسيتيه.

كانت كلماتها سريعة ومرتجلة ولم أستطع الرد عليها، ولكن بشكل ملحوظ نزعت القابس من الكهرباء وقلت:

– ده أنا قلت أسلي نفسي، ها المهم هانتغدى إيه النهاردة من إيديكِ الحلوة دول؟

– على فكرة بابا جه باين بالليل متأخر، وعائد كلمه واتفقوا تكون الخطوبة بعد بكره..

قالتلها بابتسامة لم أعلم طعمها بعد، ابتسامة فرحة ولكن من نوع فريد:

– كنتم خلوها يوم الخميس، ماجاتش من يوم يا ملك.

قالت:

– يا ستي حلو ماله الأربع يعني؟ زي السكر، وبعدين سيبك بقى ويالا عشان ننزل نشتري الفستان، آه أومال إيه يا صوفيا؟

– خلاص مش لازم أنا آجي.

قالت مهللة:

– بجد والله يا صوفيا؟!

وقبلتني وقالت:

– يا حبيبتي ياصوفيا والله، أنا بحبك موت.

وخرجت مسرعة وضحكت ضحكة لا أعلم عنها الكثير، لأني بالطبع كنت فرحة سعيدة لها، بل كنت مسرورة حقًّا وسعيدة أيضًا لعائد، لكن ليتني لم أفتح الفيس ولم أقرأ رسالته، بضع دقائق مرت في التفكير ودق جرس الباب فتحته ووجدت عائد مبتسمًا وقال:

– هاتيجي معانا مش كده؟

– عملتلي بلوك على الفيس ليه؟

– عشان بحبك ومش عايزك تحتاري ولا تفكري فيا، إنتِ قولتي إنك بتحبي جوزك وهو بيحبك، وكمان افتكرت إن ملك حكتلي عن قصة حبكم، كان لازم أكون حازم وما أحيركيش، ومع إني بحبك كان لازم أخليكي تنسيني، أو على الأقل ما تفكريش فيا، حتى لما بوست ملك كنت شايفك،

وعشان كده عملت كده، اسألي ملك والله عمري ما بوستها.

كانت الدموع قد ملأت عيناه وأكمل:

– أنا دلوقتي ندمان، والله ماعرفت أعمل حاجة غير إني أعمل لك "بلوك" كان نفسي يبقى في "option" يسحب الرسائل اللي اتبعتت حتى، وأنا بأقول الكلام ده دلوقتي عارف إني هازعلك أو أحيرك، أنا عايز كده حياتك تمشي طبيعي زي ما هي.

– فخورة إن كانت مراهقتي معاك، وإنك أول شاب كنت في حياتي، أنا بأعزك جدًّا واعتبرني أختك في أي وقت.

ابتسم باصطناع برع فيه وقال:

– مافيش وقت يالا إلبسي عشان تيجي تختاري معانا فستان أختك ومرات أخوكِ.

– حاضر ثواني.

قبل أن ألتفت وجدت رائحة ملك بجانبي، أدرت رأسي قليلًا وجدتها، ولكن رحمة من الله أنها كانت تنظر إلى عائد نظرة اشتياق، فذهب ما خشيت منه..

كان يومًا جميلًا، لكن في المساء لم أستطع أن أنام، وسهرت طوال الليل أفكر في اللاشيء، وعندما حل الصباح كنت منهكة وعليلة، كان يدور في بالي أن أذهب إلى الطبيب، لكن إلى أي تخصص أذهب؟

ذهبت إلى الدكتور سليم في عيادته كان ترتيبي في الأدوار العاشرة، ولكن طلبت من "التمرجي" أن يخبر الدكتور بأني أريد الدخول فورًا، وكعادة كل الأطباء طلب منه أن يدخلني ويسمح لي بالدخول بعد أن يتقاضى

ثمن الكشف المستعجل، وبعدما دخلت وقعت عيناي على صورة الطفل الملائكي، ثم على الدكتور سليم مباشرة.

– إزيك يا صافي، عاملة إيه؟

بدون مقدمات قلت:

– مش تمام خالص يا دكتور، أنا تعبانة، مخنوقة، فيه حاجة مش طبيعية.

أمر "التمرجي" أن يحضر كوبًا من الليمون وقهوة سادة، وأن يلغي الحجز والكشوفات حتى الرابعة مساءً. نظر إليَّ أن أكمل ما أود أن أقوله:

– أنا مخنوقة يادكتور الدنيا اتقلبت على دماغي كامل ظهر، لؤي اختفى، عائد رجع كل حاجة متلخبطة، آآآآه..

نظر إليَّ أن أكمل..

– هو العيب مني أنا عارفة، يمكن أكون مريضة، تصور يا دكتور أنا حبيت أكتب رواية قمت مألفاها للمستقبل، بس ما حبيت لؤي خالص، خليته شخصية بعيدة عني، كل الشخصيات اللي في حياتي كتبتها، لكن في الخيال يعني، مثلا كتبت اللي باتمناه إن كامل يبقى جوزي وإن عائد يبقى ابني وإن لؤي يبقى بعيد.. كتبت إني باشتغل في مجلة، وأنا كان نفسي في كده لكن لؤي منعني من الشغل، كتبت إن أمي ماتت عشان ترتاح، وبعد ما كتبت كل ده قطعته..

تعجب الدكتور ثم سأل:

– ليه قطعتيه؟

– لأن الحياة مش كده، أنا في الواقع مش في الخيال!

– طيب ما إنتِ ممكن تقلبي الخيال لواقع..

– إزاي؟

– تطلقي من لؤي وتتجوزي كامل، ولما تخلفي سمِّي ابنك عائد، وكامل ممكن يسمح ليكِ تشتغلي، ووالدتك أكيد هاتموت بعدين وتستريح، وبكده اللي بتتمنيه حصل..

– ما ينفعش طبعًا لؤي هايروح فين من حياتي؟

– وكامل بيبعد فجأة عشان حاسس إنكم مش لبعض، أو مش مرتبطين، لكن لما يبقى في ارتباط هيبقى ملكك، أما لؤي فهيشوف حياته بقى، وبعدين المهم دلوقتي إن..

ثم اقترب مني وهمس:

– المشكلة في إيديكِ إنتِ اللي عقداها وإنتِ اللي في إيدك الحل.. مشكلتك إنك بتحسبي للناس قبل ما تحسبي لنفسك.. الناس هما حياتك خايفة عليهم قبل ما تخافي على نفسك وده أكبر غلط.

– لا المشكلة إني مش عارفة اختار، ولا آخد قرار مناسب.

– ما هو عشان خايفة تجرحي وخايفة تغيري.

قبل أن يكمل جاءه اتصال ليرد:

– أيوة يا كامل.. خير؟

بضع ثواني كانت كافية لتغيير ملامح الدكتور سليم وتمتمة:

– طب اهدا أنا جاي.

نظرت إليه رافعة حاجبي وسألت بعيناي قبل فمي:

– في إيه؟!

– كامل عنده حالة يعني هاروح أشوفها!

قلقت كما ينبغى أن أقلق ولكن لا أدري لماذا؟

عندما يعجز طبيب نفسى مخضرم مثل الدكتور سليم عن التحكم في لغة جسده وايماءاته، فلا بدَّ أنه أمر خطير..

وقف الدكتور سليم وخلع معطفه وقال وهو يعلقه على الشماعة:

– صافي ممكن تكتبي رواية عن ماضيكِ؟

– ليه؟!

– ده علاجك.. ارجعي للذكريات اكتبي الواقع لكن في الماضي!

– حاضر!

نطقت حاضر بصوت باهت، كم يعشق لؤي هذه الكلمة، يود لو يسمعها أكثر من عشر ومائة في الدقيقة!

ذهب الدكتور سليم وتركني، خرجت بعد أن ألقيت نظرة على صورة الطفل الملائكي المعلقة على الحائط..

في البيت وجدت ملك تنتظرني، وما أن دخلت حتى سألتني:

– صافي كنتِ فين؟

– ليه؟

– بسأل عادي، أصل عايزة أتكلم معاكِ شوية.

– خلعت الـ "Dress" الذي لم أرتديه منذ أيام الجامعة أيضًا ونظرت إليها:

– اتكلمي يا حبي.

– إنتِ فين من الصبح يا صافي؟

كان هذا صوت أمي كان ينبغي ألا أكذب أو أتجمل أمامها.

– كنت عند الدكتور سليم يا ماما.

لم تسأل ثانيةً، لكنها أضافت:

– خلي بالك من نفسك يا حبيبتي.

– حاضر يا أمي.

رمقتني ملك وغمزت عيناها مبتسمة:

– يا بت دكتور سليم برده؟

– آه والله.

– ليه مالك تعبانة؟

– مش عارفة أعمل حاجة ولا آخد قرار.

– صافي إنتِ لازم تبعدي كل اللي حواليكِ عن حساباتك، فكري في نفسك شوية فكري فيكي يا صافي، في مشاعرك في سعادتك في حياتك، شوفي عايزة مين في حياتك ومين مش في حياتك.

ارتفعت نبرة صوتي قليلًا:

– مش عارفة.. مش عارفة.. لؤي بيحبني وكامل بيحبني وعائد..

نظرت إليَّ بشيء من العصبية، وهمت بالصراخ:

– "يا بنت المهم إنتِ بتحبي مين؟".

انهمرت فجأة في الدموع:

– صعبانين عليَّ، صبر وحب لؤي بيعذبني، كامل فيه حاجة بتدفعني أقرب منه وأتعلق بيه..

– يمكن بتحبي في كامل وجعه أو تردده.

كان هذا صوت بداخلي لم يكن صوت ملك لأن ملك كانت مشغولة بالرد على تليفونها.

أكمل الصوت احتمالاته:

– أو يمكن بتحبي إصرار لؤي وقوته.

تركت ملك بهاتفها ودخلت حجرتي فتحت "الآي باد"، ومن ثم حسابي على الفيس بوك لأكمل قراءة الرسائل القديمة، بعدما حذفت رسالة عائد خشية من أن تقرأها ملك صدفة.

بحثت عن رسائل أخرى غير مقروءة وكانت المفاجأة حساب شخص يدعى "مازلت أبحث" كتب إليَّ:

"صافي إنتِ اتغيرتي بعد الحادثة ولا أنا اللي بيتهيألي؟".

"صافي إنتِ لسه بتحبيني ولا لأ؟".

"صافي إنتِ فعلًا اتجوزتي لؤي عن حب".

"صافي ليه مش بتردي؟".

"صافي إحنا بنحب بعض ليه بعدتي؟".

وأخيرا كانت رسالته الأخيرة التى دفعتني إلى الصراخ:

"صافي لو بتحبيني انسيني لأني فهمت كل حاجة".

كانت تلك الرسالة بتاريخ زواجي 19/2.

ناديت على ملك وسألتها عن هذا الحادث، أظهرت عدم المعرفة، ولكن بدا عليها الارتباك.

أيضًا ادَّعت أنه على سبيل الهواء وأن كثيرًا من مستخدمي "الفيس بوك" يفتعلون ما أسمته بـ "حوارات" أظهرت لها أني على قناعة بما تقوله، وابتسمت لها:

–آه ده حوارات.

بعدما خرجت ملك دخلت على الصفحة الشخصية لـ "مازلت أبحث" لأجد صورة الطفل الملائكي الموجود في عيادة الدكتور سليم!!

هل هي صورة عالمية يتناقلها البعض؟ ولماذا لا؟ وصورة هذا الطفل الرائع تدخل القلوب قبل أن تراها؟!

تحديث لحالة لم أحدثها منذ سنة ونصف تقريبا كتبت "انهيـــــــاااا اااااااااااااااار" وقتها وعندما تمعنت جيدًا في حروفها، انهارت الذكريات حولي مثل جبل جليدي وقعت الشمس على قمته، وذلك بعدما رأيت كلمة "حالتك هي"، أغلقت هذا الشيء الذي يدمر حياتك بمجرد تحديث حالة من الآخرين، أو تعليق أو إعجاب من عدمه، لاشك أبدًا أن الفيس بوك وسيلة للانهيار النفسي أحيانًا.

أخذًا بنصيحة الدكتور سليم شرعت في الكتابة، كتابة الماضي تراجعت بالذكريات كتبت:

(نظرت له على أن يكف عن تردده وحيرته وضعت يدي على كتفه وقلت:

– يا كامل ماحدش هايبعدني عنك غيرك، خليك قوي شجاع أنا لا يمكن

أقبل أي شخص مهما كان، أخبرني أنه أحبني، أول لقاء لي في الجامعة أخبرني أيضا أنه سيتفرغ لي بعد انتهاء عامه الدراسي الأخير، كان في طب بشري كان يأتي إلى قسم إعلام من أجلي، عشنا سويًا أجمل اللحظات، أحبيته كثيرًا وأحبني بتردد ملِح قلت له ذات يوم.

– إنتَ لازم تتخصص نفسي عشان تعالج نفسيتك!!

ظهر لؤي كالشبح، أراد أن يمتصني منه فتقدم إليَّ وحاول أن يبتاعني بأمواله، لا أنكر أنه كان فقري في كل شيء، ولكن كلا.. فأنا أحب كامل رغم جبنه.

بعد عناء طويل مع أهلي، توقفت عن الكتابة بعدما رقرقت عيناي بالدموع وتاهت الذكريات عني، فرض علي الحجاب في سن السابعة من عمري أيضًا منعني من دخولي الأوسكار في مدرستي حتى رحلات المدرسة منعني من الذهاب إليها بإدعاء أنه يخاف عليَّ، لم يحبني يومًا ولو أحب ما فعل هذا!!

قال لي يومًا وأنا في سن العاشرة لا أعي مثل هذا الكلام:

– إنتِ ما تعرفيش أن البنت زي عود الكبريت؟ أنا عايز أحافظ عليكِ عشان ماحدش ياكل وشي، الناس هاتقول علينا ايه؟!!

لم يحافظ عليَّ خشية أن أقع فريسة لفاسد فأتألم، لم يخشَ عليَّ من الألم أو الخطر بقدر ما خشي من كلام الناس، ومظهره أمام أصدقائه، أعترف أني أكرهه بل أني لا أعرف للكره طريق إلا فيه!!

انهمرت في البكاء وأخذت تنهيدة طويلة، ما لبث أن تشتت ذهني وبهتت ذكرياتي من جديد ولكن..

لم أنسَ هذا اليوم، ولا أظن أنه سيُمحى من ذاكرتي مهما كان أو سيكون؛ لأني وقتها عجزت عن استيعاب ما حدث عندما كنت في الصف الثاني

الثانوي، اليوم الذي ضحكت فيه أكثر مما يجب، بعدما انتهى درس الأحياء كانت "شكرية" إحدى زميلاتي التي تمنن لها الغيرة في ممارستها:

– إيه يا صافي هو عائد ما جاش النهاردة ليه؟

– ما عرفش!

– إزاي ماتعرفيش والبنات بتقول إنك مدلوقة عليه، وماشية معاه في كل حتة، وهو منفضلك خالص.

تاهت الأفكار من رأسي لكن سرعان ما تذكرت ورقة أخرى.

في نفس اليوم الذي لن أنساه ذهبت إلى البيت على غير ميعاد رجوعي، وكنت غاضبة ومتذمرة، فتحت الباب قبل أن أسمع ضحكات يعلو صوتها تخرج من حجرة الأنتريه، وعندما فتحت الباب انفتح في قلبي جرح لن يندمل مع الزمان، وجدت أبي في موضع جعلني أكره أني من صلبه، بل أكره أني مازالت على قيد الحياة، ولكن كانت صدمتي الكبرى في من معه، كانت بنتًا لا تتجاوز العشرين من عمرها، خرجت مسرعة إلى الشارع، لا أعلم أين أذهب؟ بل لا أعلم أين أنا؟!

بضع دقائق كانت كافية كي أصل إلى بيت عائد، لأخبره بما حدث بيني وبين شكرية، لا أتوقع أني كنت أستطيع وقتها أن أفصح لأحد عما في قاع قلبي، ترسب ذلك الحدث بداخلي حتى اليوم، كانت ردود عائد باردة.

– طيب ما هو فعلا إنتِ بتجري ورايا.

– ده حب.

– لا.. دي مراهقة، وإنتِ مراهقة بزيادة.

– يعني إنتَ مش بتحبني؟!

– ماعرفش.. أتأكد من ده لما نكبر.

خرجت يومها وفي جوفي سعر لن ينطفيء، ولكن أتذكر أنه بعد عام كتبت على الاسكتش: هناك نظرية في علم النفس تقول: "أنه من الممكن أن تجتاز محنتك بمجرد أن تكسر حاجز الخوف"، هكذا الفراق فمن الممكن أن ينطفيء لهيبه بمجرد أن تعتاد عليه.

قرأتها مدرسة الرياضيات بصوتٍ عالٍ، وقالت: إنتِ مشروع كاتبة هايلة يا صافي.

أذكر ملامح عائد التي لم تتغير ولم يعتريه أي اندهاش!!

ووقفتني عن وجع الذكريات المنهارة من حولى صوت الـ "notifica–tio" بالضغط على الإشعارات ظهر لي تعليق من "مازلت أبحث".

– كلنا لازم ننهار للحظة عشان نلملم بعض الأشياء اللي محتاجينها ونبدأ نبني من تاني!!

بكتابة علامتي التعجب هذه كان عليَّ أن أعلق، فكتبت:

– الانهيار وجع ينصب عليك ويبقى حولك تنغمس فيه، لا تستطيع أن تخرج منه، يظل يحيطك من جميع الجهات، لا يهمد ذلك الوجع إلا عندما تنهار جسدًا، يخمد بنضجك وتعجز خلايا مخك عن الإدارك، هنا ينسحب الوجع وتنتقل إلى البرزخ.

دخلت ملك وقبل أن تنظر إليَّ وقفت دقائق على الباب مطأطأة رأسها:

– مالك يا ملك؟

– إنتِ تعرفي عائد؟

التجاهل كان دائمًا وأبدًا أسلم حل وأفضل اختيار:

– آه مش خطيبك؟!!

ربما علي أن أذهب لأخذ "كورس" في فن التجاهل بل في معاملة الناس في هذا العصر!!

– ليه خبيتي عليَّ؟ ليه ماسبتنيش اختار؟ ليه كده؟

ليه؟ هو في الغالب سؤال لن يكون له إجابة صادقة يومًا، "ليه؟" سؤال صعب جدًّا أن تمتلك له إجابة حقيقية، موهوم من يحب ذلك.

– عشان هو مش في دماغي ولا أنا في دماغه، ده كان أيام مراهقة وعدت!

– لا ماعدتش، عائد سابني وقال إنه مش قادر ينساكِ، إنتِ أنانية يا صافي، طول عمرك كده.. ممكن أسمحلك تاخدي أي حاجة مني حتى روحي، أما عائد فـ آسفة مش هاسمحلك أبدًا.

قالتها بعدما تبدلت ملامحها بشيء من العنف، ولكن قبل أن تخرج التقيتُ جثة هامدة.

لم أشعركم مر من الأيام وأنا ملقاة على السرير، ملك بجواري تنعي حظها، وأمي على كرسيها تبكي، جاءت بخاطري كلمات وددت أن أسردها، لكن برق في مخيلتي وجه الطفل الملائكي.

كان معلقًا في يدي "كانيولا" نزعتها وارتديت ملابسي، وخرجت بعد معاناة مع أمي وملك.

عند الدكتور سليم وبدون مقدمات فتحت الباب والعامل يقول:

– يا مدام ماينفعش كده!!

– قلتلك سيبني، انتبه دكتور سليم إلى صوتي، فأمره بتركي، نظرت إلى الصورة جيدًا وتحسستها بأناملي دي صورة مين يا دكتور؟

– كامل وهو طفل.

– أنا كنت متأكدة.. آه والله.

– طيب وليه سألتيني؟

– عشان أتاكد.

– ما إنتِ قلتي إنك متأكدة، وجاية وعارفة إنها صورته!

– الأعراض الفسيولوجية من الحادثة يا دكتور.

– مش فاهم!

عندما يقرر الطبيب النفسي خداعك يظهر بمنتهى الثقة، تكاد تشك في نفسك قبل أن تشك فيه.

نظر إلي نظرات متتالية، لن أصف نظرته الأخيرة خاصة الذي رمقني بها:

– صافي، كامل حكى لي على كل حاجة.

– بس أنا ماعرفش حاجة من كل الحاجات دي.

– أنا مصدقك وعشان كده قلتلك حاولي تتعمقي في الذكريات الدفينة، وتكتبيها من اللاوعي، وهنا هاتفتكري حاجات كتير.

– أنا عملت حادثة وفقدت جزء من الذاكرة وبعدين؟!!

– وقتها إنتِ كنتِ محتاجة تتعالجي، والذاكرة كانت هترجع على طول، كامل كان بيحبك وإنتِ كمان كنتِ بتحبيه، ولما فقدتي الذكريات نسيتي أي حاجة ليها علاقة بالماضي، ولؤي كان بيحبك برده بس بطريقة غلط.

عندما رآني أبكي أخبرني بأنه لا داعي للبكاء، وكل شيء قد تم وانتهى وأن كل ما أريده هو الذي سيكون، هدَأ من روعي وتلجلجي:

– صافي إهدي أنا عاوز أكملك، الصورة اللي مش واضحة ليكِ ومخلياكِ حاسة بانهيار أو حاسة أنك مش فاهمة حاجة ممكن تهدي؟

– حاضر.

كانت العلاقة بين تهدئتي وانهياري كبرج شيد آخر طابق فيه ثم انهدم في لحظات، ثم أُعيد بناؤه مرة أخرى، بعدما قص عليَّ ما حدث، أو قل قص علي ذكريات أضاعها "لؤي" وأيقنت أن "كامل" حقيقة وليس خيال.

– يعني لؤي ماعالجنيش وخبى عليَّ؟ طب أهلي؟!!

– مش عارف، بس الواضح إن لؤي أغرى أهلك بالمال.

– آه دي حقيقة.

قلتها ووضعت رأسي أسفل ذقني، وتحسست العقد الألماس الذي أرتديه، وتذكرت السيارة الواقفة أمام العيادة التي أقودها حتى بعدما انفصلت منه، تذكرت أيضًا ثمن العملية التي أجريت لأمي، ومن قام بدفعه، أيضًا لم أنسى الفيلا التي قد كتبها باسمي، تراجعت بظهري إلى الكرسي، ووضعت يدي على المكتب، ونظرت إلى الصورة جيدًا.

– إيه في إيدي ممكن أعمله؟

قبل أن يجيب الدكتور سليم على سؤالي، دخل كامل مسرعًا، لأراه مهمل المنظر وعيناه حمراوتين.

– أنا تعبان يا دكتور سليم.. صافي؟!

أدرك الدكتور سليم أن عليه الرحيل الآن، لكنه أضاف قبل أن يخرج:

– صافي افتكرت حاجات كتير.

قاطع تكهناته صوت أذان العصر وبعدها بدقائق:

– سيبتني أضيع منك أول مرة بسهولة، لكن تاني مرة سيبتني لغاية ما اتجننت.

– إنتِ مش فاهمة حاجة يا صافي، وياريت تفضلي مش فاهمة.

قبل أن تطول المحادثة نبض الهاتف برسالة عائد:

– عايزك أشوفك ضروري.

حين نظرت في شاشة الهاتف كان كامل قد اختفى، خرجت مسرعة وقد نادى عليَّ الدكتور سليم ولم أجبه، بينما أنا تائهة في ذكريات مازالت باهتة لكنها موجوعة قدر اختفائها وعدم اتضاحها، أوقفت السيارة على صوت طفلة تصيح:

–أنا عايزة أروح لماما.. عاااااا ياماما عاااااا.

– مالك يا حبيبتي إنتِ تايهة؟!

ليرد عليَّ عائد:

– كلنا تايهين.. إنتِ نفسك تايهة من نفسك.

أخذنا الطفلة وسلمناها إلى قسم شرطة العاشر من رمضان.

البيت على بعد خطوات واقترح عائد أن نمشي هذه المسافة، وبشيء من الكذب والنفاق حينما يمتزجان معًا ليصير طُعمًا لتلتقطه سمكة عمرها يوم واحد:

– إنت عارف يا عائد إني ماكنتش بحبك ودي كانت مراهقة وراحت لحالها.

– أنا بحبك.

– ملك هي كمان بتحبك جدًّا، ودي أكتر واحدة تستحق قلبك.

– أنا بحبك.

– هافضل ليك أخت تقول لها اللي نفسك فيه ولو ملك زعلت..

– أنا بحبك.

– فوق بقى.

احتلجت عيناه ونظر يمينًا ويسارًا إلى الطريق، فلم يجد أحدًا، فأعطى الأمر لدمعه أن ينساب، حتى لا يُصاب بالاحتقان:

– فوقي إنتِ، أنا بحبك، وأقسم بربي بحبك، ولا عارف أنساكِ، كنت شايف ملك إنسانة كويسة، وجاية تساعدني، فسلمت ليها نفسي، وهي فعلًا ساعدتني، لكن إني أعيش.. مش إني أنسى، ولما عرفت إنها أختك حبتها لأنها أختك، لأنها في يوم لمستك، في يوم نامت جنبك، كنت حابب أمسك إيديها عشان إنتِ لمستي أيديها، كنت حابب أكلمها عشان ودانها سمعتك، كنت حابب أحضنها عشان ريحتك فيها، مافاتش أيام وحسيت إني باخونك فيها، قلت لها الصراحة وهي تقبَّلت.

– هي كابرت مش تقبَّلت.

– ماليش دعوة المهم إني بحبك.

هنا كنت قد وصلت إلى البيت، دسست يدي في جيبي لأخرج المفتاح وقلت:

– عائد أنا أعصابي تعبانة دلوقتي، مش عارفة ولا فاهمة حاجة، ممكن نتكلم بعدين؟

نظر إليَّ طويلًا، وبعد فترة من الصمت رحل.

سحبت مجلة من البقالة المجاورة للبيت، ولمحت صورة لؤي على الغلاف وقد كتب تحتها: "ارحموا عاشقًا باع نفسه من أجل معشوقته".

في الحقيقة أضحكني هذا العنوان جدًّا، وزاد من ضحكي ما كُتِب تحت تلك الجملة "الكمية محدودة".

دقائق لم أحصها، وكنت في حجرتي أنا والمجلة وبعض الذكريات، فتحت الصفحة التي يسرد فيها لؤي قصة بيعه من أجل معشوقته:

(وهنا تقهقر الضحك على عتبتي أعزف الآن بنغمات مجهولة الإيقاع لا أعلم لماذا تركتها بدون مساعدة؟ لكني خشيت من فقدها المستمر، كان عليَّ أن أنتزع منها الماضي وأرسم لها مستقبلًا معي، معي فقط.

أحببتها بكثرة وهُيِّأ لي أن الحياة مقموعة فيها، ولكن لا أعلم أن الميت لا يبعث لنا الحياة، أهملتها بيدي والآن أبكي دمًا على فراقها.. أعلم أنني أذنبت، بل أخطأت ولكن رغمًا عني أحببتها.

لطالما حلمت الوصول إلى جنتها، كنت أريد أن أطأ جنتها بقدماي، أعلم أني كنت عنوانًا للذل في حبها لم ترحمني، كان عليَّ فعل المزيد من الحسنات لأقترب من جنتها، لكني كنت ومازلت في نظرها مذنب، لم ولن تطأ إحدى قدماي تراب جنتها، فعلت من أجلها كل شيء إلا ما أردات، أعترف أني مازلت عاصٍ، ولأكفِّر عن سيئاتي وأتوب؛ عليَّ أن ألهث تحت قدميها ربما ترحمني، وتغفر لي ما أقترفه حبي من أجل الوصول إليها.

ختم كلماته بكلمة "أعشقها" على يسار الصفحة تصفحت المجلة لم أجد شيئًا آخر كتبه، أخذت هاتفي واتصلت:

– ألو..

– صافي وحشتيني.

– عايزة أشوفك بكرة الساعة خمسة العصر.

– طيب ما ترجعي على البيت على طول.

– خمسة العصر قدام بيتنا في الحديقة العامة، سلام!!

انهيت المكالمة وبدأت مكالمةً أخرى، كم من نهاية مؤلمة كانت بداية سعيدة، وكم من أخرى تنتهي فيها نشوة شيء، لتأتي ثالثة بأمتع من ذلك الشيء:

– ألو..

– صافي وحشتيني كنتِ لسه على بالي.. شوفي لسه سايبك ووحشتيني، كنت متأكد إنك هتتصلي ها؟ هانتخطب إمتى؟

– هاستنى العدة.. عايزة أشوفك بكرة قدام بيتنا الساعة الخمسة العصر.

– في المكان اللي وقفنا فيه دلوقتي؟

– آه، سلام!!

أخذت "الآي باد" وحدَثت حالتي على "الفيس بوك": حينما تترجم الذكرى على شكل حروف، وحينما يعبر عن الإحساس ببضع كلمات، هنا يكمن وجع الذكريات عندما تتلون بلون اللهب.

بضع دقائق كانت كافية لتعليق لؤى:

من إنتِ يا أنا؟

قفلت "الفيس" سريعًا بل سجلت خروجًا، بل قفلت الإنترنت بأكمله، وضغط على زر قفل "الآي باد" ليتوقف عن النبض مثلما توقفت على النبض حاليًّا.

ارتفعت ذكرياتي عن منسوب سطح الوعي، وارتعشت يداي و.. أفاقني صوت المذياع المتسلل من الصالة.

نظرت إلى الساعة، كانت العاشرة صباحًا أخذت ورقة بدون ان أفكر كتبت فيها:

"صافي إنسانة عادية مش ضحية، الحكاية كلها إنهم حبوها غلط، لؤي وكامل صادقين في حبهم، لكن طريقتهم كانت كفيلة أنها تضيعه من أيديهم، أما عائد مظلوم وظالم، لكن برده لا أنكر أنه أحب صافي وأن حبه فوق الحدود.

المهدئات التي سفتها صافي كانت هي السبب في الأعراض الفسيولوجية اللي بتحصل لها، الذكريات لما بدأت ترجع لصافي خلتها مش عارفة حاجة، ومتلخبطة مفيش شك إن صافي عانت كتير، واللي بيحبوها عانوا برده، صافي اتغيرت وأكبر دليل على كده أنها كتبت صافي دلوقتي أكثر من مرة صافي قوية وهاتعيش حياة أفضل صافي..... كتير".

أوقف كتابتي صوت الهاتف:

– ألو..

– إزيك يا صافي يا بنتي، أنا خلاص لقيت لك مكان في الجريدة.

– إن شاء الله هاجي بعد بكرة من أول السنة.

– ده بعد بكره 15/5 يا بنتي مش أول السنة ولا حاجة!!

– معلش دة بالنسبة لي أول السنة.

– خلاص يا صافي مكانك موجود.

بعدما شكرته وأغلقت الخط أكملت سرد.....

"صافي فاكره يوم 15/5 كويس يوم ما كامل جابلها سلسلة في عيد

ميلادها يمكن تنسى عيد ميلادها، لكن ما تنساش اليوم ده..

صافي في اليوم ده كانت أسعد واحدة.

– أنا سعيدة يا كامل أوعدني نفضل مع بعض.

– إن شاء الله لو مفيش حاجة وحشة حصلت.

– ليه هو إيه اللي هيحصل؟

– محدش عارف القدر مخبي لنا إيه؟

– برده يا رخم مش هازعل لأني مبسوطة جدًّا.

صافي فاكرة اليوم ده كويس لما راحت البيت وهي تنشد السعادة، فاكره كمان لما مامتها طلبت منها تنزل تجيب دواء، وقبل ما تعدي الطريق العربية خبطتها..

بس صافي مش عارفة حاجة تاني!!

هل تعلم من لك في هذه الحياة؟

أمك.. الأم وحدها هي التي لا تخدع، لا تنافق، لا تجامل.

الأم هي التي تفعل ما بوسعها من أجلك!!

هي التي تشعر بك قبل أن تتكلم، ربما لا يفهمني البعض، لكن تبقى أمي هي الوحيدة التي تفهمني قبل أن أنطق.

ذهبت إليها مُقَبِّلة يدها، واضعة رأسي بين قدميها، ماما أنا أتجوزت لؤي إزاي؟

بكت، وكنت أيضًا أبكي بداخلي:

– كان لازم تعملي العملية، لما طلبوا أيدك في الأول فضلنا نزن عليكِ،

لكن إنتِ كنتِ عنيدة، وما رضيناش نجبرك على حاجة، أو قولي ماعرفناش، وبعدين لما عملتي حادثة احتاجتي تركبي مفصل، وكان ثمن العملية غالي بالصدفة لؤي طلب أيدك تاني و..

– بالصدفة؟!

– يعني إيه يا بنتي؟!

نظرت إليَّ طويلًا ثم قالت:

– لا يا صافي ما تخليش الشك ياخدك لبعيد كده، مش معنى إن انسان عمل معاكِ موقف وحش يبقى الإنسان كله وحش.

– طيب كملي يا أمي أنا آسفة.

– وافقنا مقابل أنه يعمل لك العملية، والدكتور قال أنك هتنسي بعض حاجات وعايزة علاج ينشط لك الذاكرة، لؤي اتكفل بكل حاجة واتجوزتوا.

– كامل ما سألش عليَّ؟

ردت أمي وهي تلوي فمها وأبعدت عينها:

– سأل.

– وبعدين؟!

– ولاحاجة، اتجوزتي بقى، ومش عارفة بتنبشي في الماضي ليه؟، احمدي ربنا على قدرك وخلاص..

– هو الظلم قدر؟!!

– ده نصيبك يا بنتي.

– طب ما أنا راضية بنصيبي أهو.

– فكرك يعني أنا راضية عن ابتزاز أبوكِ للبنات اللي عنده في الجامعة؟ ولا راضية عن أخوكِ اللي بقاله ست سنين مانعرفش عنه حاجة؟ غير إنه كان في المستشفى بالصدفة يوم ما كنت هناك، لكن نصيبي، ولازم على الأقل أقول أنا راضية.

حدقت في عينها الممتلئة بالدموع، خشيت أن تنهار دموعها أمامى، فحبستها بينما انهار كل شيء بداخلي.

في حجرتى أجريت مكالمة هاتفية:

– ألو..

– أزيك؟

– أشوفك بكره العصر قدام بيتنا.

– ليه؟!

– هاتعرف بكره.. سلام!

بدأت في اتخاذ القرارت وبدأت أيضًا في وضع النهاية، كانت الساعة السابعة والنصف تقريبًا، ووسط دخول الليل أكلت بعض اللقيمات، استعدادًا ليوم سيكون لي، جهزت فستانًا أسود اللون، داكنًا، يليق بلون الغد، أيضًا تمرنت جيدًا ومرنت تعبيرات وجهي على التجهم والتعصب، كان يجب عليَّ ألا أرق أو تنتابني العواطف، تلقيت "الآي باد" الذي قلب حياتي رأسًا على عقب، فتحت صفحتي، وحدثت حالتي: "هناك أناس لا تجيد العزف إلا على أوتار تلاشت معالمها، أوتار لم يبقَ حتى فُتاتها، وبعد العزف ربما لا يكتشفون أنهم كانوا سبب آلام ما تحت الأوتار البالية، بل يتباهون بلحنهم الذي هو صوت أنين الجرح"، كان عليَّ أن أضيف حالة أخرى بعدما نشرت الخاطرة السابقة.

فكتبت بعدما رتبت أحرف تنبع من قلب مازال منصعرًا: "لم أظنك يومًا مثلهم، لكنك خذلت ظني بأفعالك، واكتشفت أنك أدناهم"، بعدما بحت للفيس بوك ببعض ما بداخلي كان عليَّ أن أسال:

– ألو.. دكتور سليم معايا؟

– أيوة إزيك يا صافي.

– أحسن كتير.. الحمد لله.

حينما تقرر المرأة التظاهر فيما ليس بداخلها سيكشفها طبيب ومحلل نفسي أهمدتها هذه الثقة.

– أأمري يا بنتي.

– أنا فهمت كل حاجة، والصورة وضحت، لكن الحالة دي اللي حصلت لي بعد الحادثة بتحصل لناس كثير.

– جميل.. بس يا صافي إنتِ ماضيكِ مؤلم، وكان عندك استعداد إنك تنسي الذكريات أصلًا، بل إنتِ كنتِ بتتمني إنك تنسي، لكن بعدما الذاكرة بدأت ترجعلك، رجعت الذكريات مشوشة ومش مكتملة، وده لأنك ماتعالجتيش على طول، بس.. ده الموضوع ببساطة.

– أنا مش عارفة أشكرك إزاي؟

– ربنا معاكِ خدي بالك من نفسك، وحاولي تفكري فيها شوية.

– ده أكيد.

– في رعاية الله.

حينما ترى الصورة كاملة، ويتضح لك كل شيء، ويبدو لك ما خفي

قديمًا، عليك أن تكون رحيمًا في اتخاذ القرارات، لكن عندما تحتار في اتخاذ قرار، فعليهم أن يكونوا رحماء في استيعاب حيرتك واختيارك الخاطئ.

كلمات مبهمة، وقرارات حائرة، سيظهر كل شيء غدًا، ولي أمل مع الدنيا غدًا.

تمام الخامسة ارتديت فستاني الأسود، وأخذت من كوب الليمون، ونزلت السلم بهدوء، وقفت على باب عمارتنا، حتى لمحت عائد يدخل الحديقة، وقد سبقه كامل الذي أخبرني أنه بانتظاري هناك، ما لبث بضع ثوانٍ حتى دخل لؤي أيضًا.

حين دخلت الحديقة كانوا يجلسون سويًّا، وكانت الدهشة عنوانًا لهم، في خواطرهم أسئلة كثيرة لن أهمد شغفها بالاجابة، وقف كامل عندما رآني:

– إيه يا صافي؟

نظرت إليه بدون جواب، وجلست على أحد الكراسي واضعة قدم فوق الأخرى في وضع متوازي، أما عن لؤي فقد حان دوره في إفشاء ارتباكه:

– مالك يا صافي؟

أما عائد فبكى دون أن يسألني شيئًا.

جاء دوري في الحديث، لكني لم أتكلم، وبعد لحظات من الصمت:

– صافي أنا ورايا شغل، والبنك مش بتاع أبويا، لخصي..

بعدت رأسي ونظرت له جنبًا ثم:

– تقدر تروح شغلك.

– لما أعرف إنتِ عايزة إيه؟

أكد السؤال كامل ولكن بلباقة تليق بطبيب نفسي، يبدو أنك حينما تدرس مجالًا ما حتى وإن كنت لا تحبه، فأنت ستتعلم منه الكثير.

– شوفي إنتِ عايزة إيه؟ وإيه اللي يريحك يا صافي واحنا نعمله؟

لم تخرج مني كلمات كثيرة، لكني قلت ببراءتي العفوية:

– ليه كده؟!!

وألححت النظر عليهم بالترتيب.

لم يستطع عائد أن يفعل شيئًا غير أنه وضع رأسه أرضًا.

قال لؤي بانهيار بدا على كل ملامحه وصوته:

– عشان بحبك، هددت كامل مايقربش ليكِ عشان بحبك، وماقدرش أعيش من غيرك، وكان كل أمل أوصل لك عملت ليكِ كل اللي تحلمي بيه، أنا فعلًا بحبك، وماقدرش أسيبك أو أبعد عنك، إنتِ خرجتي مني كل حاجة حلوة، أنا حياتي إنتِ، والله ما أقدر أعيش من غيرك، سامحيني على اللي عملته فيكِ.

بينما كانت كلمات كامل:

– لسه بحبك ولما بعدتي فكرت ده كان اختيارك، لكن لما جيت أقرب تان هددني لؤي فخفت، أنا بحبك لحد دلوقتي، وماقدرش أسيبك، لأنك لما رجعتي شقلبتي كل حياتي.

لم ينطق عائد إلا بـ:

– وربي بحبك.

كانت ثمن دموعي أكبر من أن يحدث، وفشلت في التكابر، وانهرت من جديد:

– ليه أعيش حياتي مرغمة عليها مع واحد أناني؟ بيحب نفسه وبيرضي مشاعره وبس!

ومع ذلك نسيت الذكريات، لكن ما نسيت إني مش بحبك، وليه يبعد عن إنسان حبيته؟ لمجرد أنه جبان ومتردد، إنسان خاف يأخدني له، وليه يرجع لـ شخص طلب مني من زمان نبعد ووصفني بالضعف والمراهقة؟!!

– ليه إيه ذنبي في كل ده؟

أخبرني كل منهم أنه يحبني، ويود فعل أي شيء من أجلي، برر كل منهم موقفه وكانت حيل صائبة حقًّا، لكني لملمت ما بقي مني، وتركتهم لأول مرة في وجعهم، وأدركت أني تغيرت لأني بدأت أن أوجع.

ذهبت إلى البيت وأخرجت من مكتبي ورق الماضي، وقمت بتمزيقه، لكن أخذت ورقة من جديد، وبدأت أسرد بداية رواية جديدة، لن أتجاهل فيها أمي البائسة وأبي الذى لم أتمناه يومًا أن يكون كذلك، لكنني تجاهلت أخي الذي لا أعلم عنه الكثير، وأيضًا تجاهلت فيها كل ما فعله لؤي من أجلي، شرعت في بدايتها كنت أترقب أيامي معه، فقط لأسعده فلم يكن لدي مايسعدنى، انتهت الآلام من اليوم!

ها أنا الآن أصبحت أعلم جميع الحقائق التي طالما جهلتها وغيبت عني!

فالآن أعلم ما الدافع الذي دفعني لذلك، وتلك.

تركت عائد واثقًا من عودتي، وكامل راضيًا على فراقي ولؤي منبهرًا من تمردي عليه وأنا مصدومة فيهم جميعًا، ومع ذلك سأكون لأحدهم يومًا.